1

الانتماءِ الثقافي عند عبد اللّه النديم

(1261 – 1313 هـ، 1845 – 1896م)

obeikandl.com

obeikandl.com

6

كلمات

(وما خُلقت الرجال إلا لمصابرة الأهوال ومصادمة النوائب. وما اختار الله- تعالى- للمصائب إلا الرجال، ولا يثبت لانهمار الغيوث إلا الجبال.

والعاقل يتلذذ بما يراه في فصول تاريخه من العظم والجلالة، وإن كان المبدأ صعوبة وكدرًا في أعين الواقفين عند الظواهر.

والشدة إن صوتت بجلجلها، وحلت بكلكلها، ماذا عسى أن يكون، مما تتخيله الظنون؟.

أليس الأمر يرجع إلى موت وحيرة؟ وهذان لا يملكهما إلا الله، وقد فرغ من تقديم الأشياء قبل خلق المسببات والأسباب.

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾[1] [2].

عبد الله النديم

---

(1) الحديد: 22.

(2) عبد الله النديم. مجلة (الأستاذ) العدد الرابع عشر ص 318 والثاني والأربعون ص 1032. طبعة مصورة عن الأصل. القاهرة. دار كتبخانة للنشر والتوزيع سنة 1984م

obeikandl.com

تعريف في سطور

النديم.. هو:

- عبد الله بن مصباح بن إبراهيم الإدريسي الحَسَنِي (1261 – 1313 هـ – 1845 – 1896م).
- كاتب وشاعر وخطيب، وسياسي مناضل، وعالم في كثير من العلوم الإسلامية، وراسخ القدم في علوم العربية الفصحى، ومبرز في النظم والكتابة باللهجة العامية.
- ولد بالإسكندرية، وحصَّل ما حصل من الثقافة والعلوم بالجهد الذاتي والمناهج غير النظامية.
- احترف بعض المهن، وشغل عددًا من الوظائف الصغيرة والثانوية.
- أنشأ (الجمعية الخيرية الإسلامية)- في الإسكندرية- للرعاية الاجتماعية، ولتعليم أبناء الفقراء.
- تفتحت مواهبه – ككاتب – في صحافة تيار الإحياء والتجديد، الذي قاده جمال الدين الأفغاني (1254 – 1314 هـ، 1838 – 1897م)، فكتب في صحف (المحروسة) و(العصر الجديد).

obeikandl.com

- شارك في قيادة الثورة العرابية (1298- 1299 هـ - 1881- 1882م) وكان أبرز خطبائها المهيجين وألمع كتابها الثوريين. وأصدر إبَّان الثورة صحيفة (التنكيت والتبكيت)- رجب سنة 1298 هـ - 6 يونيه سنة 1881م- و(الطائف)- التي حلت محل (التنكيت والتبكيت)- ومثلت لسان حال الثورة.
- بعد هزيمة الثورة، أمام التدخل العسكري للاستعمار الإنجليزي، واحتلال مصر، طاردت السلطة الاستعمارية عبد الله النديم، فاختفى- في ذي القعدة سنة 1299هـ سبتمبر سنة 1882م - عشر سنوات، كانت ملحمة من ملاحم الصمود والمعاناة.. وفيها ألَّف عشرين كتابًا، تشهد موضوعاتها- بل وعناوينها- على عمق تكوينه العلمي في علوم الإسلام والعربية، وعلى قدمه الراسخة في مدرسة الإحياء والتجديد.
- وبعد القبض عليه- نتيجة وشاية- في صفر سنة 1309هـ سبتمبر 1891م- حُبس أيامًا، ثم نفي من مصر فأقام بفلسطين، حتى عَفا عنه الخديوي عباس حلمي الثاني (1291 - 1361 هـ - 1874 - 1944م) فعاد إلي مصر سنة 1310 هـ 1892م، وأصدر مجلة (الأستاذ)- (1310هـ 1893م).
- وبسبب مقالاته في (الأستاذ) نفاه الإنجليز ثانية، فذهب إلى

obeikandl.com

فلسطين، ثم إلى الأستانة، فعمل فيها، وصحب أستاذه جمال الدين الأفغاني، حتى وافاه الأجل، ودفن هناك.

- له من الآثار الفكرية والأدبية- غير الصحف التي أصدرها وحررها- كتب: (كان ويكون) و(كتاب الاحتفا في الاختفا) و(السانحة في علوم الفاتحة) و(الآلام واللذات في اتصال الروح بالذات) و(صَرْف الوضمَة[1] عن صِرْف[2] العصمة) و(وفد البدعي على باب الشفيع) و(خلاصة ما كان في ليس في الإمكان أبدع مما كان) و(الفرائد) و(طهارة القلوب والأفواه شرح لا إله إلا الله) و(حلة الأنوار لمادح المختار) و(سيف الموحد في نحر الملحد) و(ترصيع الماس في خير الناس) و(مأتم البُكيّ على آل النبي) و(وطنية الشرق) و(النحلة في الرحلة) و(السكر النبات في تربية البنين والبنات) و(نحن وأنتم) و(إنقاذ البليد من ورطة التقليد) و(الدر النفيس في تاريخ بني إدريس) و(نيل الأرب في أخبار العرب).

كذلك، له ديوانان لأشعاره.. وروايتان تمثيليتان عنوانهما (العرب) و(الوطن).

---

(1) الوَضْمَة – بفتح الواو وسكون الضاد – الجماعة من الناس.

(2) الصِّرْف – بكسر الصاد وسكون الراء – الخالص من الشيء.

تمهيد
عن الموضوع.. والمنهاج

عندما يكون موضوع هذه الصفحات عن (الانتماء الثقافي للنديم)؛ فإن أول ما يجب هو تحرير مضامين المصطلحات.

* **فالانتماء**: هو الانتساب، الذي يجسد خيوط الولاء التي تشد الإنسان المُنْتَسِب إلى ما ينتسب إليه، فيرتبط به، وينجذب إليه، ويخلص له الولاء والانتماء.

* **والثقافي**: نسبة إلى الثقافة- التي هي جماع المهارات التي تثمر عمران النفس الإنسانية وتسهم في تهذيبها- تثقيفها- وارتقائها على درب المثل والمقاصد والنماذج التي صاغتها وتصوغها العقائد والفلسفات التي يؤمن بها هذا الإنسان، فهي- الثقافة- مع (المدنية)- التي تمثل عمران (الواقع)- جماع الحضارة والعمران.

* والحديث عن الانتماء والانتساب والولاء الثقافي لعبد الله النديم، لابد وأن يحدد موقع انتمائه الثقافي إزاء:

(أ) الوافد الثقافي الغربي- الذي فتحت أمامه الأبواب، في عصر النديم، أكثر من ذي قبل.

obeikandl.com

(ب) وإزاء موروثنا الفكري والثقافي، وتيارات هذا الموروث.

(جـ) وموقع النديم– ولاء وانتماء– من دوائر الانتماء الثقافي:

1 – الوطنية– التي كانت تمثلها مصر.

2 – الدائرة الشرقية– والتي كانت تستخدم، في أدبيات ذلك العصر، للدلالة على الدائرة الإسلامية، وما في أوطانها الشرقية من أجناس وأقوام، ومن ملل وأديان.

3 – الدائرة الجنسية– التي تحدد حدودها الأعراق.

4 – الدائرة العثمانية– الجامعة لأقوام وملل شرقية متعددة. أين كانت ثقافة النديم من هذه الدوائر والمؤثرات والمرجعيات؟

• ولقد اعتمدت هذه الدراسة واحدًا فقط من الآثار الفكرية للنديم؛ كي يكون الديوان الذي نكتشف فيه ومنه انتماءه الثقافي، وهو مجلة (الأستاذ).

ولم يكن سبب الوقوف عند (الأستاذ)، دون غيرها من صحف النديم وكتبه، بسبب حجم الدراسة– الذي قد يقتضي الاقتصاد– غير المخل– في المصادر؛ وإنما كان الاكتفاء بهذا المصدر– مجلة (الأستاذ)– مؤسسًا على العديد من الأسباب:

1 – فمجلة (الأستاذ) هي آخر الأعمال الفكرية لعبد الله النديم، وفيها تجسد الموقف الأخير الذي انتهت إليه وختمت به رحلته الثقافية، التي

obeikandl.com

حفلت بالمراحل والأطوار والمواقف والآراء.

2 - وفيها تمثلت مرحلة نضجه الفكري، حتى إنه يسمي أعداد- أجزاء- هذه المجلة- في آخر مقالاته بآخر أعدادها- يسميها (أجزاء كتاب العبر، وباب المبتدأ والخبر)[1]؟!.

3 - وعلى صفحات هذه المجلة تناثرت خلاصات تأملاته في سنوات اختفائه العشرة، بل لقد كان نشر هذه المجلة لخلاصات موضوعات المؤلفات العشرين التي كتبها النديم في فترة اختفائه واحدًا من مقاصد إصدار هذه المجلة.. يعلن عن ذلك شقيقه (عبد الفتاح النديم الإدريسي)، في العدد الأول من (الأستاذ)، فيقول: (والحامل لي على فتح هذه الجريدة[2]، أني رأيت شقيقي الفاضل السيد عبد الله أفندي النديم، المنشئ الشهير، قد مضى مدة اختفائه مشتغلًا بوضع كتب لا تخلو من الفوائد، فاستأذنته في نشرها، ومع كوني اتخذت هذه المؤلفات مادة للجريدة، فإني وكلت تحرير مطالبها وترتيب رسائلها لقلمه)[3].

ففي مجلة (الأستاذ) خلاصة مؤلفات النديم، والآراء التي ختم بها مرحلة جهاده الفكري، بعد حقبة الاختفاء.

---

(1) (الأستاذ) العدد الثاني والأربعون. ص 1031.

(2) كان عبد الله النديم (محرر الجريدة) وكان شقيقه (مدير الجريدة).

(3) (الأستاذ) العدد الأول.. ص3.

4 – ويزكي هذا الاختيار لهذا المصدر – أيضًا – منا تميزت به حقبة صدور (الأستاذ) من بعد عن ملابسات الهياج الفكري وثقافة الشعارات وصياغات التعبئة الوطنية الحادة، التي تميزت بها– وكان لابد أن تتميز بها– مرحلة الثورة العرابية، ومقالات النديم أثناءها.

5 – كذلك، كانت المواجهة– إبَّان صدور (الأستاذ)– مع (الآخر الثقافي)، والوافد الفكري الأوروبي، حقيقة قائمة على أرض الواقع الثقافي– وليست مجرد احتمال– فكانت (الأستاذ) ميدانًا من ميادين هذه المواجهة مع المنابر الثقافية والفكرية والسياسية التي مثلت (الآخر الثقافي) في ذلك التاريخ، وخاصة منبري (المقتطف) و(المقطم) اللذين تمثلت فيهما حملة التبشير بمذاهب الغرب وبالسياسة الاستعمارية.

6 – ثم إن حجم هذا المصدر – (الأستاذ)– كبير، فصفحاتها تربو على الألف– 1032 صفحة – .. الأمر الذي يجعلها– بمادتها الثقافية– وافية كل الوفاء بتحديد معالم الانتماء الثقافي لعبد الله النديم.

7 – ويزيد من أهمية هذا المصدر؛ مكانته في ساحة الفكر والثقافة الشرقية– وليس فقط المصرية– في ذلك التاريخ. فهذه المجلة الأسبوعية التي لم يزد عمر صدورها عن عشرة أشهر[1]، قد فاق انتشارها كل الصحافة

(1) صدر العدد الأول: الثلاثاء. أول صفر سنة 1310 هـ 24 أغسطس 1892م. وصدر عددها الأخير– الثاني والأربعون– يوم الثلاثاء 28 ذي القعدة سنة 1310 هـ 13 يونيو سنة 1893م.

المصرية في عصرها- جرائد كانت تلك الصحافة أو مجلات- يومية كانت أو أسبوعية أو شهرية تلك النشرات؟!. فعلى حين كان توزيع (الهلال)- الشهري- 740 نسخة.. و(المقتطف)- الشهري- 1300 نسخة.. و(المقطم)- اليومي- 1455 نسخة. و(الأهرام)- اليومي- 2775 نسخة.. فإن توزيع مجلة (الأستاذ) قد بلغ 2840 نسخة متفوقًا على سائر الصحافة المصرية في ذلك التاريخ!. فهي (ديوان) الانتماء الثقافي للنديم. وهي أوسع دواوين الانتماء الثقافي- لمجتمعنا- انتشارًا في تلك الحقبة المتميزة من حقب المواجهة بين ثقافتنا وبين الوافد الثقافي الأوروبي. الأمر الذي يرشحها مصدرًا وافيًا لدراسة موضوع هذه الصفحات.

obeikandl.com

الانتماء الثقافي.. والتقدم

كانت حياة النديم معركة في سبيل الاستقلال الوطني والتقدم الحضاري، تعددت فيها الآليات، وتمايزت (نبرات الصوت)، دون أن يغيب المقصد عن هذا المفكر السياسي المناضل في لحظة من اللحظات.

وفي الحقبة التي صدرت فيها (الأستاذ)- في ظل حكم الاحتلال الإنجليزي، وتحكم اللورد كرومر (1841- 1917م)- كان النديم يتحايل؛ كي يواصل جهاده، بالإعلان عن أنه لن يخوض في (السياسة)، بمعنى (الإدارة)، (.. وأما فن السياسة - من حيث هو - فإنه يدخل في موضوعها العلمي، فإن علم التاريخ والأخلاق والعادات وتدبير الممالك ووحدة الاجتماع العالمي من الفروع السياسية) التي تدخل في صميم رسالة (الأستاذ)[1]. ومن هذا الباب لم تدع هذه المجلة ميدانًا من ميادين المواجهة مع الاستعمار الإنجليزي، ومع الوافد الثقافي الأوروبي- الذي قامت له منابر ثقافية وإعلامية رعاها الاحتلال الإنجليزي في مصر يومئذ- لم تدع (الأستاذ) ميدانًا من هذه الميادين إلا وخاضت فيه. ففي التصدي لسلطة الاحتلال المباشرة استخدم النديم أسلوب (الرفق)؛ لتحقيق الجلاء،

(1) (الأستاذ) العدد الأول ص 2، 3.

وكتب يقول: (وبالرفق يستخرج الإنسان الحية من وكرها. وفي الإشارة ما يغني عن الخبر، فاعتبروا يا أولي الألباب!)[1]. أما في الفكر والثقافة، فلقد كانت أعداد المجلة صراعًا بين الانتماء الثقافي للنديم وأمته وبين الوافد الغربي الذي يبشر به (الأُجراء) و(العملاء)!.

ولهذه الملابسات؛ فإن حديث النديم عن الانتماء الثقافي للأمة، لم يكن لونًا من ألوان (الترف الفكري)، وإنما كان سلاحًا لمقاومة الاحتواء الاستعماري للأمة، وتحقيقًا لشرط من شروط التقدم الحقيقي، الذي يخرج الأمة من مأزق (التخلف الموروث) و(الهيمنة الوافدة).

والنديم، الذي كتب دراسة ضافية عن أسباب تأخرنا وأسباب تقدم الغربيين، رغم أن (الخَلْق واحد)- وجعل عنوانها: (بِمَ تقدموا وتأخرنا والخَلْق واحد)[2]؟!. ولعلها أقدم الدراسات في هذا الموضوع. كان مهمومًا بقضية (التقدم)، باحثًا عن عوامل التراجع الحضاري، وشروط النهضة. ولقد امتدت بصيرته إلى الجذور التاريخية لتراجعنا الحضاري، ورصد من عوامله الداخلية:

(أ) حكم التغلب وسلطان الاستبداد.

(ب) تجزئة السلطة وتشرذم الأقاليم في ديار الإسلام.

(1) المصدر السابق.. العدد الثاني والعشرون.. ص 528، 529.

(2) المصدر السابق.. العدد الخامس عشر.. ص 337 – 352.

(جـ) تراجع سلطان العلماء وتأثير المؤسسات العلمية والتعليمية.

(د) ضيق السلاطين بالحرية الفكرية، وتضييقهم على أرباب الأفكار الحرة وأهل الاجتهاد والتجديد.

وهي أمراض التخلف الداخلي، التي طرأت على حياتنا بعد حقبة ازدهار الحضارة الإسلامية، عندما (جاءت الدولة العربية وأطلقت حرية الأفكار، وجمعت العلماء من جميع الجهات، وترجمت كتب الأوائل الحِكْميَّة وغيرها، وفتحت بابًا أغلقه الجهل قرونًا طويلة. ثم انقضى دور الضخامة وتوحيد الكلمة، وجاء وقت المتغلبين، فتجزأت المملكة، وتصدَّى الثائرون لقتل العلماء وإحراق الكتب وهدم المدارس، فانطفأت أنوار العلوم الشرقية، وضيق ملوك الشرق على أرباب الأقلام)[1].

وأبصر النديم دور التحديات الخارجية التي جابهت المسيرة الحضارية لأمتنا، دورها في تنمية الأمراض الداخلية للتراجع الحضاري، وفي إطالة عمرها، والحيلولة دون الخلاص منها. وعلى هذه الجبهة رصد تحديات الغزوة التترية، والحروب الصليبية.م. ودورهما في استدعاء ودعم سلطات التغلب والاستبداد، وفي تراجع دور العلم وسلطان العلماء. فبعد أن (انبثت روح العلم في المسلمين، وظهر منهم علماء الشريعة الغراء، والآليات، والرياضيات، والطبيعيات، وزينوا الدنيا بعلومهم، وملئوها بآدابهم، ومزقوا ثوب الجهالة والضلالة بسيف الدين

(1) المصدر السابق. العدد الخامس عشر. ص 348.

obeikandl.com

والعلم. جاءت فتنة التتار، فقهرت سير المسلمين، وأوقفت التقدم العلمي. وأعظم منها فتنة الحروب الصليبية التي غرست العداوة بين الملتين الإسلامية والمسيحية، ولاشت القوة العلمية بالقوة العدوانية، فأخذ العلم في الانزواء، ثم في التلاشي بموت أهله وإقفال مدارسه وإحراق كتبه ونهبها.)[1].

وبعد الرصد لأسباب التخلف التاريخي، الداخلي منها والخارجي، نبه النديم على أن التقدم إنما يمثل حركة شاملة للنهوض لابد فيها من تضافر (الملوك- والدول) و(العلماء وأرباب الأقلام والأفكار) و(الأغنياء وجمعيات وشركات التجارة والصناعة والزراعة).

فإذا كان (التأخر إنما جاء من تعميم الجهالة، بإغضاء الملوك عن وسائل التعليم، والتضييق على أرباب الأقلام والأفكار، وبُعْد الأغنياء عن الجمعيات، وتقاعدهم عن ضروب التجارة والصناعة والزراعة، ورضاهم بالبقاء تحت أسر الشهوات)، فإن التقدم مشروط (بإطلاق الملوك حرية الأفكار والمطبوعات، تحت المراقبة، وبذل الأغنياء الذهب في حياة الصنعة، وتعميم المعارف في المدن والقرى، ومساعدة العلماء على الرحلة خلف حيرة العلم، واجتماع كلمة الملوك والوزراء والأمم على السعي خلف التقدم، وبذلك يمكنهم أن يوقفوا تيار أوروبا شيئًا فشيئًا حتى يضارعوها قوة وعلمًا..)[2].

(1) المصدر السابق. العدد الحادي والثلاثون. ص 730.

(2) المصدر السابق. العدد الخامس عشر. ص 352.

فلم يكن النديم داعية لمطلق (التقدم) ولا لأي (تقدم)، وإنما هو هنا داعية (للتقدم الذي يوقف تيار أوروبا شيئًا فشيئًا، وذلك بمضارعتها قوة وعلمًا).. ولهذه الحقيقة التي ميزت التقدم الذي دعا إليه النديم، والتي ميزت وتميز الانتماء الثقافي الذي أفاض في الحديث عنه، جاء حديثه عن ضرورة تحديد (المرجعية.. والمبدأ) الذي تبني عليه الأمة أعمالها على درب التقدم، إخراجًا لها وخروجًا بها من الحيرة التي تعانيها إزاء التعددية في مرجعيات ومبادئ التقدم والنهوض.. (فرجال الشرق، أخذوا يحاكون أوروبا، وسعوا في جميع كلمتهم، وعقد الجمعيات لفتح مدارس العلوم والصنائع وتهذيب النفوس وتعميم الآداب، ولكنهم، مع بقائهم على التفرق، وعدم اتخاذ مبدأ يبنون عليه أعمالهم، لا تزال الأيام تقيمهم وتقعدهم، وهم حيارى بين المقعد والمقيم)[1]!.

ولم يترك النديم قارئه في حيرة إزاء الانتماء الثقافي (للمرجعية.. والمبدأ) الذي زكاه منطلقًا للتقدم الذي دعا إليه، فهو انتماء (للجامعة الشرقية) وثقافتها. تلك التي رآها إطارًا جامعًا يضم تحت جامعه الأكبر العديد من دوائر الانتماء الفرعي، التي تتكامل في بناء نموذج ثقافي شرقي- متميز عن النموذج الثقافي الغربي- الذي صارعه النديم على صفحات مجلة (الأستاذ).

(1) المصدر السابق. العدد العشرون. ص 461، 462.

وقضية (التعددية) في دوائر الانتماء الثقافي، تبرز في كتابات النديم عندما يعرفنا بنفسه، فهو: (عبد الله النديم، الإدريسي، الحَسَني، الأشعري، الشافعي، الخلوتي، الإسكندري)[1].. ففيه تتعدد وتتكامل دوائر الانتساب والانتماء إلي الأسرة، وإلي آل البيت من أبناء الحسن بن علي بن أبي طالب- رضي الله عنهما- وإلى الأشعري- في علم الكلام وأصول الدين - .. وإلى الشافعي- في فقه الفروع- وإلى الخلوتية- في طرق التصوف.. وإلي الإسكندرية - في الميلاد والنشرة.

وفي عناوين مؤلفات النديم تطالعنا هذه الحقيقة.. ففيها كتاب عن (وطنية الشرق)، وكتاب (نحن وأنتم)- عن تميز الشرق من الغرب الأوروبي، وكتب عن التاريخ العربي والتراث الإسلامي. ومن بين كتبه العشرين عشرة خالصة للإسلاميات[2]..

أما مجلة (الأستاذ)، التي وصف أعدادها بأنها (أجزاء كتاب العبر، وباب المبتدأ والخبر)[3]، والتي كانت منبرًا للرابطة الشرقية، فإنه يصفها بأنها (جريدة إسلامية) تجاور (جرائد دينية مسيحية للبروتستانت)، وتصارع (جرائد الأجراء)- المبشرين بالانتماء الثقافي للغرب- من مثل (المقتطف) و(المقطم)[4]!!.

(1) المصدر السابق. العدد الحادي والأربعون. ص 999.
(2) المصدر السابق. العدد الثاني والأربعون. ص 1025، 1026.
(3) المصدر السابق. العدد الثاني والأربعون. ص 1031.
(4) المصدر السابق. العدد الرابع والثلاثون. ص 791، 792.

obeikandl.com

وإذا كان النديم قد بدأ حياته الفكرية والثقافية في صحافة تيار الجامعة الإسلامية، الذي بلوره وقاده جمال الدين الأفغاني، وختم حياته بصحبة الأفغاني في الآستانة- حيث شيعه الأفغاني إلى مثواه الأخير- فإنه قد أعلن- في مجلة (الأستاذ)- عن انتمائه لهذا التيار التجديدي، الذي سعى إلي تجديد دنيا المسلمين بتجديد دين الإسلام، ففضلًا عن إعادته نشر بعض مقالات (العروة الوثقى)- لسان حال ذلك التيار[1] - فإن حديثه عن الأفغاني وعن الإمام محمد عبده شاهد على هذا الانتماء. فهو يتحدث عن (السيد جمال الدين الأفغاني، الشهير، الغني عن التعريف، الرجل الذي جرب الأمور، وساح الأقطار، وخالط الأمم، وداخل السياسيّين ودرس التاريخ والحاضر والماضي، وامتد باعه في العقليات، أصبح أمة وحده بين ذوي الفضل- الأمر الذي دعا مولانا الخليفة الأعظم لاستدعائه وإدخاله في لفيف العلماء الخاص بمجلسه العالي، فقد أهَّلته المعارف والتجارب والمخالطة العامة لمسامرة الملوك والنظر في السياسات العالية. وهذا كله من فضل السيد الأعظم حفظه الله تعالى)[2].

فإذا كان السلطان وأمير المؤمنين- عند النديم- هو (الخليفة الأعظم)، فإن (السيد الأعظم) هو جمال الدين الأفغاني! وهو يكتب ذلك في ظل الاحتلال الإنجليزي، يوم كان الانتساب للأفغاني من كبائر المحرمات!.

(1) المصدر السابق. العدد الثامن والثلاثون. ص 897 – 905.

(2) المصدر السابق. العدد السادس والثلاثون ص 868، 869.

أما تقدير النديم للإمام محمد عبده- وهو أبرز تلاميذ الأفغاني، وأعظم مهندسي صرح التجديد الإسلامي في مدرسة الجامعة الإسلامية- وللكتاب والمفكرين الذين تكونت منهم مدرسة النهوض بالعربية والتجديد لأساليب التحرير بها- فإنه يتجلي من وصف النديم الذي يقول فيه: (.. أفضل الفضلاء، وإمام محراب الإنشاء، الأستاذ الشيخ محمد عبده، والجهابذة المتفننين، والكتبة المقتدرين: حسن بك حسني، وإبراهيم أفندي علي اللقاني، وإبراهيم أفندي الهلباوي، وحسن أفندي الشمسي، وأحمد أفندي سمير، ووفا أفندي محمد، وسعد أفندي زغلول، والطيب الذكر أديب أفندي إسحق، وغيرهم من الفضلاء الذين عرفتهم الأقلام بما أودعوها من أسرار الإنشاء وضروب التحرير..)[1].

وهي أوصاف شاهدة علي موقع فكر أعلام هذه المدرسة من مدارس الإحياء والتجديد الإسلامي في الانتماء الثقافي لعبد الله النديم.

ففي إطار (الجامعة الإسلامية)- والتي كثيرًا ما سميت (الجامعة الشرقية) و(الرابطة الشرقية).. كان الانتماء الثقافي للنديم.

وفي إطار هذا (الجامع الأكبر، والأول، والأشمل) رأي النديم تعدد وتكامل دوائر الانتماء الثقافي، إنْ على مستوى الفرد، أو الوطن، أو الجنس، أو الأمة، أو دولة الخلافة، التي كانت تجمع - يومئذ - العديد من دوائر الانتماء.

(1) المصدر السابق. العدد التاسع والثلاثون. ص 938.

onelkanari.com

الجامعة الشرقية: انتماء حضاري في مواجهة الغرب

تحدد الثقافة التي تصوغ الوعي للإنسان- فردًا أو شعبًا أو أمة- حدود دائرة المحيط التي يمنحها الولاء ويخصها بالانتماء. فهناك ثقافات تقف بانتماء صاحبها عند حدود القبيلة، وأخرى لا تجعل صاحبها يتجاوز جغرافية الوطن، وثالثة تقصر الانتماء والولاء علي الجنس- بالمعني العرقي والسلالي- ومن الثقافات ما تجعل الدائرة الحضارية هي محيط الانتماء، ومنها ثقافات أممية طمحت إلى حصر الانتماء في طبقة من الطبقات الاجتماعية علي امتداد الإنسانية، أو إلغاء ما عدا الدائرة الإنسانية من دوائر الولاء والانتماء.

وفي كتابات عبد الله النديم تركيز واضح على أن دائرة انتمائه الثقافي هي الدائرة الشرقية- بالمعني الحضاري، الذي يجعل تميزها نابعًا من مقابلتها للحضارة الغربية، التي كانت تقتحم أبواب الشرق وحياة أهله في ذلك التاريخ. وفي هذه الكتابات أيضًا ما يؤكد على اشتمال هذه الدائرة الشرقية- كجامع حضاري أكبر- على العديد من دوائر الانتماء الفرعية التي لا تناقض بينها وبين هذا الانتماء إلى الدائرة الحضارية الشرقية.

obeikandl.com

والأمر الذي يؤكد أن (الشرق) في هذه الثقافة لم يكن معني جغرافيًّا فحسب، وإنما كان دائرة حضارية، هو استخدام هذا المصطلح- (الشرق)- في أدبيات التيار الفكري الذي انتمى إليه النديم كمرادف لمصطلح (الإسلام)، فالحضارة الشرقية والجامعة الشرقية، والرابطة الشرقية، والنهضة الشرقية، والشعوب الشرقية.. الخ.. الخ. كان المعني بها حضارة الإسلام وجامعته ورابطته ونهضة شعوبه، والتي تضم مللًا وأقوامًا هي جزء أصيل وعضوي من حضارة الإسلام- وإن ميزتها لغات أو معتقدات روحية لا تمثل بدائل لهذه الطوائف عن السمات الجامعة لحضارة الإسلام.

ولقد أشارت مجلة (العروة الوثقى)- لسان حال تيار (الجامعة الإسلامية)- وهي تتحدث عن منهج هذا التيار وأهدافه- إلى هذه الحقيقة- حقيقة استخدام مصطلح (الجامعة الشرقية) بمعنى (الجامعة الإسلامية)، عندما قالت: إنها (ستأتي في خدمة الشرقيين على ما في الإمكان، وتأتي في فصولها على أهم ما له أثر في أحوال الشرقيين عمومًا والمسلمين خصوصًا)، ثم أردفت قائلة: (ولا يظن أحد من الناس أن جريدتنا هذه بتخصيصها المسلمين بالذكر أحيانًا، ومدافعتها عن حقوقهم تقصد الشقاق بينهم وبين من يجاورهم في أوطانهم. فليس هذا من شأننا، ولا مما نميل إليه، ولا يبيحه ديننا، ولا تسمح به شريعتنا. وقد نخص المسلمين بالخطاب لأنهم العنصر الغالب في الأقطار التي غدر بها الأجنبيون..)[1].

(1) جمال الدين الأفغاني (الأعمال الكاملة) جـ2 ص 344، 349، دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة طبعة بيروت سنة 1981م.

فالجامعة الشرقية هي جامعة الأغلبية المسلمة، التي تتعرض لغزو الحضارة الغربية. ووصفها بالإسلامية- الجامعة الإسلامية- لا يغاير وصفها بالشرقية بحال من الأحوال.

***

و(الجامعة الشرقية) - في ثقافة النديم - تضم أوطانًا عدة، وأجناسًا متعددة. لكن متاخمة أوطانها بعضها لبعض جعلتها (في حكم الوطن الواحد)، وغلبة التدين بالإسلام علي شعوبها قد أصبح رباطًا جامعًا كاد أن يذيب فواصل الأجناس وحواجزها، ومكانة العربية- التي هي لسان الدين والتراث- قد جعلتها رباطًا جامعًا تعلو مكانته على غيرها من اللغات الشرقية. وكانت الدولة العثمانية- الجامعة لأغلب أقاليم الشرق يومئذ- هي الأخرى عامل توحيد في هذه الجامعة الشرقية، وذلك فضلًا عن التناقض الحضاري والخطر السياسي اللذين مثلتهما الغزوة الغربية، مما جعل الجامعة الشرقية- في ثقافة النديم- (السد المحكم بين الشرق وبين المتهيئين للوثبة علي الشرقيين)!.

(فالجامعة الشرقية) - إذاً - هي دائرة انتماء ثقافي وحضاري، أوسع من الدائرة العربية- القومية- وأعم من الرابطة العثمانية- الإدارية والسياسية. فهي دائرة حضارية، تقف في مواجهة الحضارة الغربية الواثبة- بالاستعمار- على الشرق والشرقية والشرقيين.

وقد كان لاستخدام النديم مصطلح (الشرقية)، أكثر من مصطلح (الإسلامية)، سببٌ موضوعيٌّ في الظرف السياسي الذي عاش فيه. فتهمة (التعصب الديني) كانت- كما سيأتي- في مقدمة الاتهامات الموجهة إلى الحركة الوطنية المصرية، وإلى النديم على وجه الخصوص، الأمر الذي جعل استخدام مصطلح (الجامعة الشرقية) أكثر شيوعًا في الأدبيات التي أبدعها.

فهو عندما يتحدث عن الروابط التي تربط المصريين بأهل المشرق- الشام- وبالعرب عمومًا، يخلص- بعد تعداد هذه الروابط- إلى أنهم جميعًا جزء من الجامعة الشرقية، فيقول: إن (بين المصريين والشاميين والعرب رابطة: اللغة والسلطة في الكل- (أي السلطة العثمانية الجامعة)- والدين في معظمهم، والجنس في أغلبهم، والمتاخمة التي تصير المجموع في حكم الوطن الواحد، وهم محتاجون إلى الجامعة الشرقية سدًّا محكمًا بين الشرق وبين المتهيئين للوثبة عليهم)[1].

وهذه الجامعة الشرقية هي جامعة للأجناس والقوميات الإسلامية، من المغرب الأقصى إلى الشرق الأقصى، (ولا برء لأهلها من الخبل والهُلاس إلا بمعرفة التركي حق العربي وفضله، واعتراف العربي بمجد التركي وسيادته، واتفاق السوري مع المصري، وائتلاف الهندي باليمني، واتحاد العراقي بالفارسي، وارتباط التونسي بالمراكشي، وتوجيه نظر المجموع

(1) (الأستاذ) العدد الثامن عشر. ص 420.

وهمته إلى ما يسمَّى شرقًا لا ما يسمَّى جنسًا، فإن حاجتنا إلى توحيد الكلمة حاجة الأعمى إلى من يقطع به الصحراء)[1]!.

والنديم يتحدث عن دور الإسلام في تكوين (جنس مستعرب) غدا أوسع دائرة من (الجنس العربي) الذي كان قبل التدين بالإسلام، فالتدين بالإسلام قد أقام جوامع: (وحدة الدين) و(الوطن) و(الجامعة السياسية والإدارية)- الدولة- فامتزجت أجناس متعددة، بفعل هذه (الجوامع الإسلامية)؛ لتلد الأمة العربية على امتداد هذه الأفق الجديد والمديد. (فعند مجيء الدين الإسلامي وانتشاره في أفريقيا وآسيا وبعض أوروبا، امتزج العرب بالفرس والشاميين والمصريين والترك والغوط وبعض الطليانيين والإفرنج والسودان والحبشة والهنديين والويغور وغيرهم، وألّف بين قلوبهم، فتوحدت كلمتهم، وصاهر بعضهم بعضًا بجامعة الدين، فنتج جنس يجنح إلى الأصول بعرق التوليد، ميَّال للجامعة بوحدة الدين والوطن والتابعية، وبمرور الزمان استقل هذا الجنس وصار مستعربًا يخالف أصوله، وقد غلبت عليه المخالطة الوطنية..)[2].

وكانت مدارس التبشير الكنسية الغربية، ومعها سلطات الاحتلال الاستعمارية، قد أخذت في الدعوة إلى (جامعة عربية) منبتة الصلة بالجامعة

(1) المصدر السابق. العدد الثامن عشر. ص 413.

(2) المصدر السابق. العدد الثلاثون. ص 706، 707.

الإسلامية، وذلك لاستبعاد دائرة الانتماء الجامعة لشعوب الشرق- وهي دائرة الإسلام. وعندما يرسل أحد قراء مجلة (الأستاذ)- وهو مسيحي سوري يقيم في مدينة (بطرسبورج) إلى النديم على هذه الرسالة رافضًا ومصححًا، فيؤكد أن سياسة (الأستاذ) هي (حفظ الوحدة الشرقية.. لا الجامعة العربية وحدها) فيقول: (ولو قال هذا الفاضل: إننا ننادي بحفظ الوحدة الشرقية، من عرب وعجم وترك وجركس وكرد وأرمن وغيرهم، على اختلاف الدين، لأصاب الغرض، فإننا ننادي بها، لا بالجامعة العربية وحدها)[1].. فالجامعة العربية ليست نهاية دائرة الانتماء، وإنما هي واحدة من دوائر الانتماء التي تضمها الجامعة الشرقية.

بل لقد وضع النديم دعاة فصل أجناس الجامعة الشرقية في معسكر (الأجراء للأجنبي)، حتى وإن ربطتهم بنا الأنساب والقرابات. (فإذا رأيت مصريًّا أو سوريًّا أو تركيًّا أو هنديًّا أو فارسيًّا أو مغربيًّا يوقع النفرة بينك وبين جنس شرقي، كأن تكون مصريًّا وترى شرقيًّا ينفرك من السوري أو التركي، فاعلم أنه أجير يشتغل لغيره. وأنه أجنبي وإن اتصل بك نسبًا وقرابة..)[2]..

وكانت الدولة العثمانية أعظم دول الشرق، والجامع الأكبر في إطار الجامعة الشرقية، والسياج الذي يتعلق به الشرقيون اتقاء للخطر

(1) المصدر السابق. العدد الحادي والأربعون. ص 1004، 1005.

(2) المصدر السابق. العدد السادس عشر. ص 361، 362.

الاستعماري الزاحف على ديار الإسلام. ومن هنا كان تأييد تيار الجامعة الشرقية للدولة العثمانية، مع المناداة بإصلاح خللها، والسعي إلى تجديد طاقاتها؛ كان ذلك موقفًا ثابتًا لهذا التيار. والنديم يفصح عن سياسة مجلته، فيقول: (لقد نادى الأستاذ بالجامعة العثمانية والعصبية الشرقية[1].. وتخليد مجد الدولة العلية، التي هي مرجع الكلمة الإسلامية، وإن توزع المسلمون في أقطار متباعدة، ووجد بعضهم تحت سلطة دولة أخرى، فإنهم جميعًا يحترمون مقام الخلافة العظمى، ويعترفون أن السلطة الأجنبية عارض.. لا يحل رابطة عقدها توحيد الدين فيهم..)[2].

فدولة الخلافة العثمانية قد ظلت - حتى في لحظات الضعف التي مكنت الاستعمار من اقتطاع العديد من الأقاليم الإسلامية؛ ظلت (الحجة القانونية) ضد شرعية الاستعمار لهذه الأقاليم الإسلامية، والأمل الذي يتعلق به تيار الجامعة الإسلامية لجمع كلمة الشرق في مواجهة الاستعمار.

ولذلك اقترن تأييد تيار الجامعة الإسلامية للرابطة العثمانية وخلافتها - دائمًا وأبدًا - بالدعوة إلى إصلاح هذه الدولة وتجديد شبابها. وعلى درب الأفغاني ومحمد عبده- وكل أعلام هذا التيار- يسير النديم، الذي صاغ الدعوة إلى إصلاح الدولة العثمانية شعرًا، توجه به إلى السلطان عبد

(1) المصدر السابق. العدد التاسع والثلاثون. ص 932.

(2) المصدر السابق. العدد الرابع والثلاثون. ص 778، 779.

الحميد الثاني (1258 – 1336 هـ، 1842 – 1918م) قال فيه:

(نبرئ منك الذات عن ظلم أمة ... ولكن حواليك القليل به غدر
فَسُنَّ التساوي واحتكم واعف واصطبر ... تر الجثث الموتى يحركها النشر
فعندك من أهل السياسة سادة ... طبيعتهم حزم وحليتهم حذر
وقد تفعل الأقلام ما لم تصل له ... مدافع في الهيجاء يصحبها النصر
فَـرَبِّ الأهـالي يا إمام بحكمة ... وعلمهمُ علمًا يطيب به الشكر
وعَمِّر بـلادًا بانتشار معارف ... وإصلاح أرض لا يرى أهلها الضر
ولا تعط شبرًا للأجانب واحتفظ ... فما بعد ذا إلا التنازع والكر
وأوقـف مسير الالتزام لفتية ... تراهم رعايا والجميع لهم مكر
وبث رجال العلم في كل قرية ... لتعليم دين عنده يقف الظفر
ووحد ضروب الحكم بين رعية ... يؤلفها التوحيد ما بقي الدهر
وأبعد جميع الأدعـيـاء فإنهم ... يسيرون في طرق يُسَرّ بها الغير)[1]

فالرابطة العثمانية– التي دعا النديم إلى إصلاحها، وتجديد شبابها– هي دائرة من دوائر الانتماء السياسي والإداري في إطار الجامعة الحضارية

(1) المصدر السابق. العدد الرابع والعشرون. ص 566.

obeikandl.com

الشرقية، التي ضمت وتضم أجناسًا وأوطانًا ربطت بينها حضارة الإسلام.

وكذلك الجامع الوطني، ورابطة الوحدة الوطنية.. هي واحدة من دوائر الانتماء الفرعية التي تضمها الجامعة الشرقية. ففي الوطن تتوطن الجامعة الوطنية التي قد تمايز بينها الأصول العرقية والجنسية، والملل الدينية، لكن تجمعها الرابطة الوطنية. ولقد دعا النديم إلى وطنية تجمع بين التعددية الدينية في الشعائر العبادية والشرائع الدينية، وبين وحدة الدولة والقضاء والقانون الإسلامي، الذي مثل ويمثل جامعًا وطنيًّا وحضاريًّا لسائر الملل في ديار الإسلام على مر التاريخ. (فحفظ الوحدة الوطنية في الأجناس القاطنة فيما يسمي وطنًا إنما يكون بتوحيد القضاء والمعاملة، وتمكين الطوائف من إجراء عاداتهم في مجامعهم ومعابدهم وأعيادهم، كل بما هو حق في معتقده، جميل في عادته، بلا حجر ولا تضييق)[1].. فالقانون الشرعي الإسلامي هو بالنسبة إلي كل الذين استظلوا بالدولة الإسلامية- (من المسيحيين والموسويين والمجوس)- جامع وطني. (فعلى اختلاف مذاهبهم وأجناسهم، شملهم القانون الإسلامي العادل، وحكم بأنهم مثلنا في الحقوق الوطنية، لهم مالنا وعليهم ما علينا. فتوحدت الجامعة الوطنية بالقانون الشرعي، الذي يعد ناقضه عاصيًا لله- تعالى- ورسوله- ﷺ - ومع اتصال الحروب مع الدولة الإسلامية والدول المسيحية، لم يجن أحد على مستوطن أو وطني، ولو كان

(1) المصدر السابق. العدد الثاني. ص 25.

من الأمة المحاربة، حفظًا للجامعة الوطنية التي قررت حرمتها النصوص الشرعية. فالقواعد الإسلامية تقضي على الآخذين بها بوجوب المحافظة على الوطني والمستوطن ومعاملته معاملة المثيل..)[1].

ولقد أفاض النديم في الحديث عن الوطنية. وهو قد برأ (الوطنية المصرية) من النزعات العرقية والجنسية، فالمصريون هم الذين استوطنوا مصر، بصرف النظر عن أصولهم العرقية.. (.. فنحن معاشر المصريين نفتخر بين الأمم بهذه الجامعة التي لا تنحل عقدتها ولا يبدد نظامها. ونعني بالمصريين كل وطني من العرب والترك والجركس. أما العرب فإنهم ساكَنُوا الأقباط من مبدأ الفتح الإسلامي إلى الآن فتوغلوا في الوطنية إلى أمد بعيد. وأما الترك، فإنهم وإن تأخروا عن العرب في الاستيطان ولكنهم هجروا بلادهم، وتعاقبوا الإقامة والدٌ عن والد حتى نسوا بلادهم، فلو عاد أحدهم إليها لكان أجنبيًّا فيها، لطول العهد. وأما الجركسي، فإن من ولد منهم في مصر فحكمه حكم العرب والترك، ومن ولد في غيرها فقد جاء صغيرًا دون سن التمييز في الغالب، وربما لا يعرف اسم بلده. فهم مصريون حقيقيون. والأقسام الثلاثة تجمعهم الرابطة الدينية قبل الجامعة الوطنية، فاعتبارنا الأجناس الثلاثة مع الأقباط مصريين؛ اعتبار صحيح حجته المشاهدة والعيان..)[2].

(1) المصدر السابق. العدد الرابع. ص 73، 74، 77.

(2) المصدر السابق. العدد الرابع. ص 78، 79.

وكما جمعت الوطنية المصرية كل الذين استوطنوا مصر، بصرف النظر عن أصولهم الجنسية، كذلك جمعت هذه الوطنية بين مسيحييها والأغلبية المسلمة فيها. (فمصر التي نحن فيها: بلاد إسلامية، مختلطة بقليل من الأقباط الذين تجذبهم الجنسية إلي كثير ممن تولدوا ممن أسلم من سابقيهم، وتدفعهم الوطنية إلى التلاصق بالمجموع بجاذبية الوطنية والألفة وأصول المعاشرة التي قامت مقام اتحاد الجنسين. فهم إخوان الوطنية، فمصر مخصوصة بجامعة وطنية لم يسمع بمثلها في الأقطار، والأمة الإسلامية مع الطائفة القبطية كأهل بيت يتعاونون على المعاش، ويتعاورون الأعمال، ويتقاسمون النظر في شئون البلاد، ويتعاضدون على حفظ الوطن من طوارئ العدوان..)[1].

فالوحدة الجنسية جامعة للأكثرية المسلمة- التي تولدت من أصلاب المصريين الذين اعتنقوا الإسلام- مع القليل من الأقباط- الذين بقوا على مسيحيتهم. وهؤلاء المسيحيون الأقباط تجمعهم بكل الجماعة المسلمة في مصر- فضلًا عن الجنسية- رابطة الوطنية- النابعة من اتخاذ مصر وطنًا للجميع- ورابطة الألفة وأصول المعاشرة التي (قامت مقام الوحدة في الأصول الجنسية والعرقية).

(1) المصدر السابق. العدد الثلاثون. ص 711. والعدد الحادي والثلاثون. ص 749. والعدد الرابع. ص 75.

ولأن العبث بالوحدة الوطنية لمصر والمصريين، كان هدفًا من أهداف الاستعمار الإنجليزي وصحافة (الأجراء والعملاء)، التي نازلتها مجلة (الأستاذ)، وتصدى لها النديم، فلقد سعى الرجل إلى تحصين هذه الوحدة الوطنية المصرية من هذا العبث؛ لتظل متفردة (لم يسمع بمثلها في البلاد). ولتحقيق هذا المقصد الوطني النبيل دعا عبد الله النديم إلى إقامة (جمعية مصرية) متميزة عن الجمعيات الخيرية- الإسلامية والقبطية- تكون مهمتها الحفاظ على الوحدة الوطنية وتنمية أواصرها، وذلك (بالبحث في الوطن وخصائصه وواجباته وضروريات حياته).. فكتب يقول: (ولكننا نحب أن تزداد علاقات الوطنية بعقد جمعية مصرية، وموضوعها: البحث في الوطن وخصائصه وواجباته وضروريات حياته، ولا تخرج في هذا كله عن الأدبيات، والمحافظة على ما بين المصريين وغيرهم من روابط المحبة. فقد رأينا كل جنس له جمعيات وطنية، ونحن لا جمعية لنا تبحث في الوطنية، فإن الجمعية الخيرية الإسلامية والجمعية القبطية لا تعلق لكل منهما بما نحن في صدده، فإنهما جمعيتا إعانة وتربية أيتام. ولا يشك عاقل في أن تكوين جمعية من الفريقين يفيدهما فوائد جمة، ويحول بينهما وبين النزعات الأجنبية.. نريد جمعية تحفظ النظام الوطني بمساعيها الأدبية وما يترتب عليها من تطهير البواطن وتوحيد الكلمة)[1].

(1) المصدر السابق. العدد الحادي والثلاثون. ص 750.

كتب النديم ذلك قبل نحو عقدين من النجاح الجزئي الذي أحرزه الاستعمار وعملاؤه في العبث بوحدة الوطنية المصرية. وهو العبث الذي تصدى له وطوق مخططاته عقلاء المسلمين والمسيحيين.. أولئك الذين دعا النديم إلي إقامة (جمعية مصرية) تضمهم (للبحث في الوطن وخصائصه وواجباته وضروريات حياته، والحفاظ على النظام الوطني والحيلولة بين النزعات الأجنبية وبين فرقاء الجامعة الوطنية المصرية)!.. وهي دعوة لازالت تنتظر التحقيق والتطبيق؟!.

***

هكذا تبدت دوائر الانتماء في ثقافة النديم: جامعة شرقية، تميزها الحضارة الإسلامية تقوم بالنسبة لأجناس الشرق ومللة أوطانه؛ (سدًّا محكمًا بين الشرق وبين المتهيئين للوثبة عليهم)- بعبارة النديم.. وهي جامع أكبر يحتضن الجوامع الفرعية، التي تتآزر وتتساند في إطار هذا الجامع الكبير.

obeikandl.com

مقومات الانتماء.. والنهوض

يعترف النديم بدور (الغرب) في إيقاظ (الشرق)، لكن ليس بالمعنى الذي يتحدث عنه (الأجراء) من رغبة الغرب في إيقاظ الشرق، أو سعي الشرقيين- منذ الاحتكاك بالغرب- إلى تبني النموذج الغربي وتقليده، وإنما بمعنى إيقاظ النقيض لنقيضه، ودور العدو في التنبيه على الثغرات ومكامن الخطر، و(فضل) اللص في إيقاظ أصحاب البيت من سباتهم العميق!.

إيقاظ الغرب للشرق

فالغرب- بعد الهجمة الاستعمارية على الشرق- قد نهض بدور (المستفز) الذي استنفر الشرقيين للاستيقاظ!. (.. فلقد أثرت حركات أوروبا في معظم شيوخ هذا العصر وشبابه، فتحركت فيهم همم وغيرة وحمية لم تكن تظن فيهم لو لم تقبح أوروبا سيرهم الديني والدنيوي، فقابلوا بين نهيها عن التظاهر بالشعائر الدينية وبذلها النفس والنفيس في حياة الدني، والدعوة إليه ببث المرسلين وتكثير المعابد، فتولدت فيهم روح المماثلة، فأصبحوا يقولون وغدَوْا يفعلون..)[1]!.

(1) المصدر السابق. العدد الثامن عشر. ص 419، 420.

لقد استفز الغرب الشرق، عندما قبح سيرنا الديني والدنيوي، وعندما دعانا إلى التخلي عن ديننا في الوقت الذي كان يهجم علينا بإرساليات التنصير وبناء الكنائس والمدارس التي تسعى لتحويل أبنائنا- مسلمين ونصارى- عن دينهم. فكان أن تحركت الهمم والغيرة والحمية، بسبب هذا الاستفزاز الغربي، و(تولدت روح المماثلة)- لا التبعية كما أراد الغرب- وتبلور لليقظة الشرقية تيار من الشيوخ والشباب (أصبحوا يقولون وغدوا يفعلون)!.

والنديم يُحدّث تيار اليقظة الشرقية عن مقومات الانتماء، وعن ثوابت النهوض التي لا يجوز التفريط فيها ولا التنازل عنها تقليدًا للأوروبيين.. وهي ست مقومات:

1 - حفظ المظهر والوجاهة.

2 - حفظ الثروة، من صناعة وتجارة.

3 - حفظ الوطنية، وحقوقها وواجبات أهلها.

4 - حفظ الجنسية، بعدم التقليد والاتباع لمحسنات الغير ومجاراته في أقواله وأفعاله.

5 - حفظ اللغة، التي هي أداة الحفاظ على الأخلاق وتحسين العادات والمألوفات.

6 - حفظ الدين، الذي يمثل حفظه الجامعة الحافظة لكل مقومات الانتماء، من الوجاهة والثروة والوطنية والجنسية واللغة.

obeikandi.com

وينبه النديم في حديثه عن هذه المقومات على الثوابت منها، والتي لا يجوز تغييرها حتى ولو اقتضى التغيير تحقيق منافع مادية ودنيوية. وهذه الثوابت هي الدين، والجنسية- القومية- والوطنية. وفي ذلك يقول: (ينبغي لمن يغير عادته بعادة الغير أن ينظر في أصل عادته وفوائدها ومضارها، ثم في عادة الغير كذلك، فإن رأى حسن عادته، وأنها من لوازم حفظ المظهر، أو الثروة، أو الوطنية، أو الجنسية، أو اللغة أو الدين لزمه البقاء عليها، وإن لم تحسن في عين الخليط، وإن رآها مضرة بذاته أو وطنه أو الهيئة الاجتماعية غيّر منها ما لا يفقده الاعتقاد الديني والشعور الجنسي والغيرة الوطنية.

فإن انتقل من عادته بلا روية ولا نظر للعواقب فقد سَلَّم ذاته لمن انتقل لعادته بلا حرب، ويعز عليه الرجوع لجنسيته ووطنيته وخصائص أمته بعد نسيانه ما هي عليه من العادات وما لها من الأخلاق).

فالتخلي عن مقومات الشخصية الحضارية، بتقليد الغير، هو (تسليم للذات بلا حرب)!.. كما يقول النديم.

وإذا كان النديم قد نبَّه على إمكان تغيير العادات (المضرة بالذات والوطن والهيئة الاجتماعية) فإنه قد اشترط أن لا يمس هذا التغيير ثوابت الهوية الحضارية: (الاعتقاد الديني، والشعور الجنسي (القومي)، والغيرة الوطنية).. كما نبه على محورية الدين في ثوابت هذه الهوية الحضارية؛ لأن الإنسان (إذا تهاون في أحوال دينه وفروعه هان عليه التقاعد عن نصرة

أهله، الجامعة لما تشتت من الوجاهة والثروة والوطنية والجنسية واللغة).. فكأنما الحفاظ على الدين هو الجامع الحافظ لكل مقومات الانتماء. وذلك- بعبارة النديم- (لسَرْي الجاذبية الدينية في الجسم سَرْي الماء في العود، حتى لنرى مقيمًا في الشرق يتألم بمصاب دينيّه في الغرب، وليس بينه وبينه جامعة وطن أو جنس أو لغة..).. وإذا فقد الإنسان جامعة الدين (بتقليد الغير فقد استخدم نفسه لأفكار الغير، حتى لو اضطره لمقاتلة أبيه وأخيه معه لفعل، لاستقباحه ما هم عليه واستحسانه ما عليه الغير)[1].

حدد النديم هذه المقومات للهوية الحضارية في أول عدد من أعداد مجلة (الأستاذ)، وظل يلح عليها في كل الأعداد..

فالدين الإسلامي (هو مرجع المجد وأصل الشرف..)[2]، و(هو أقوى دعائم العمران[3]. والسبب الوحيد في المدنية وتوسيع العمران، أيام كان الناس عاملين بأحكامه..)[4]، (وليس هناك حبل متين تُقاد به الأمم غير الدين..)[5].

(1) المصدر السابق. العدد الأول. ص 12 – 14.
(2) المصدر السابق. العدد الثاني والعشرون. ص 519.
(3) المصدر السابق. العدد الخامس والعشرون. ص 593.
(4) المصدر السابق. العدد الخامس عشر. ص 352.
(5) المصدر السابق. العدد السابع عشر. ص 394.

OneKanal.com

ولذلك، يتصدى النديم لمزاعم غلاة الأوروبيين الذين يتزعمون أن الإسلام هو سبب تخلف المسلمين، كاشفًا عن دوافع التعصب الديني التي تدفعهم إلى هذه المزاعم، وفاضحًا (الأجراء) و(العملاء)- من (الطائرين حول دهاة أوروبا)! الذين يبشرون بيننا بهذه المفتريات، فيقول: (.. ومنهم القائلون إن الدين الإسلامي مانع من التقدم، وأصحاب هذا القول كالببغاء. فقد قلدوا في هذا الوهم أوروبَّاويًّا في قوله الذي طارت به الصحف[1].. وفاتهم أن الشرق ممتلئ بأديان تغاير الإسلام، والآخذون بها أضعاف الآخذين بالإسلام، ومع ذلك فإن تقهقرهم أكثر من المسلمين، وحالهم أحط من المسلمين بدرجات..).

كما يفند النديم دعوى هذا الزعيم الأوروبي المتعصب، بأن الإسلام هو سبب تعصب المسلمين دينيًّا ضد الغربيين. (فدعوى هذا الأوروبي أن الإسلام سبب لحركات الشرق ضد الغرب، وأنه لا سكون للأفكار إلا بإعدام القرآن والآخذين به(؟!)- مدحوضة بالحروب المتواصلة بين دول أوروبا المسيحية من عهد الرومانيين إلى الآن، وكلما كثرت مدنية دولة أوروبية كثر تفننها في آلات القتال والتدمير، مع سكون الشرق هذه القرون الطويلة، لا يتحرك إلا دفاعًا عن وطنه الموطوء بأقدام أوروبا الملوثة بالدماء الشرقية، ولا يحركه إلا فتنة أوروبية، ولا داعي لأوروبا في تحريك الممالك الشرقية إلا الطمع الملكي والتعصب الديني.

(1) الإشارة إلى السياسي الاستعماري الإنجليزي وليم غلادستون (1809 – 1898م).

وإنما لشدة تمسك هذا الأوروبي بدينه، كره أن يرى دينًا غيره، وأحب أن يسمع صدى صوته في بلاده، لتميل النفوس إلى رجل غيور على الدين.

وقد كان للإسلام اليد القوية أيام صولته، فلم يبطش بها بمواطنيه ولا مدها إلى معاهديه، بل ولا حرك بها عصاه نحو المتوحشين عند نزولهم على حكمه تحت سطوة سلطانه. ولم يكن عند رجاله من التعصب ما يحملهم على قهر الناس بالتضييق على ترك أديانهم، بل خيّر من نازلهم بين الأخذ به أو الاستيطان على حكمه، وهذه خصوصية له من بين الأديان..).

(فلم يكن الإسلام، ولا الأديان الشرقية السبب في التأخر، كما يزعم كثير من الطائرين حول دهاة أوروبا، بل إن الدين الإسلامي كان السبب الوحيد في المدنية وتوسيع العمران أيام كان الناس عاملين بأحكامه..)[1].

وكما انتقد النديم دهاة أوروبا، المتعصبين لدينهم ضد الإسلام، انتقد كذلك الماديين الأوروبيين الذين يرون (أن الأديان هي سبب التخاذل الحاصل في العالم، ولا سبيل لمنعه إلا تركها جملة وإعدامها من الوجود)!. ووجه حديثه إلى (الأجراء) (المقلدين) من أبناء أمتنا، الذين كانوا ينقلون هذه النظريات الأوروبية وينشرونها في بلادنا. (فهذا الفريق مقلد لدهاة أوروبا، الذين أفسدوا كثيرًا من الأخلاق الشرقية بهذه الترهات والأوهام. مع أننا لو فرضنا عدم صحة الأديان، وأنها وضعت نظامات في أيام الخشونة والجهالة،

(1) (الأستاذ). العدد الخامس عشر. ص 337، 338، 352.

ولا لزوم لها الآن مع وجود القوانين الوضعية، لكان من الواجب احترامها واعتبارها، فإن تأثير وعدها ووعيدها في النفوس لا يبلغه قانون، فإن الشخص يمكنه أن يفر من عقوبة القانون، ولكنه لا يمكنه أن يفر من عقوبة الله.. وما ساعد الملوك على النظام وبث الأمن إلا القانون الديني. والدين هو الذي يحمل العسكري على بيع حياته. ولو علم أن لا بعث ولا أجر على عمله لفر من ساحة القتال، فإن أُرغم قاتل مكرها. ولا يقال إن الشرف الوطني يلزمه باقتحام غمرات الموت، فإنه إذا علم أنه يقدم للموت ليفوز الملك أو الأمير بمراده، ولا ثواب ولا نعيم، فإنه لا يبيع حياته بلذة غيره)[1].

وهكذا، يقف النديم مدافعًا عن الإسلام، وعن مطلق الدين والتدين أمام الفكر الأوروبي، الذي تنشره في بلادنا صحافة (الأجراء) و(المقلدين لدهاة أوروبا) و(الطائرين حول هؤلاء الدهاة)، سواء أكان هذا الفكر الأوروبي تعصبًا نصرانيًّا ضد الإسلام، أم مادية رافضة لمطلق الدين.

والنديم الذي عاش في عصر (المسألة الشرقية)، والصراع الأوروبي مع الدولة العثمانية، قد أبصر مكانة الإسلام في هذا الصراع. فعداء أوروبا لهذه الدولة العثمانية كان منطلقه العداء للإسلام، الذي يحول بين الغرب وبين تنصير المسلمين، والذي يحمي الشرق من الاستسلام لهيمنة الغرب ونهبه واستغلاله. (ولو كانت الدولة العثمانية مسيحية الدين لبقيت بقاء

(1) المصدر السابق. العدد الخامس عشر. ص 339، 340.

الدهر بين تلك الدول الكبيرة والصغيرة. ولكن المغايرة الدينية وسعي أوروبا في تلاشي الدين الإسلامي أوجب هذا التحامل).

ويوجه النديم قوارص الكلمات إلى تيار التقليد لأوروبا، الذي احترفت صحافته ذم الدولة العثمانية، فيقول: (وإننا نرى كثيرًا من المغفلين الذين حنكتهم قوابلهم باسم أوروبا يذمون الدولة العلية، ويرمونها بالعجز وعدم التبصر وسوء الإدارة وقسوة الحكام، ولو أنصفوها لقالوا إنها أعظم الدول ثباتًا وأحسنها تبصرًا وأقواها عزيمة، فإنها في نقطة ينصب إليها تيار أوروبا العدواني؛ لأنها دولة واحدة إسلامية بين ثماني عشرة دولة مسيحية غير دول أمريكا، وتحت رعايتها جميع الطوائف والأجناس والأديان، وكثير من اللغات، والفتن متواصلة من رجال أوروبا إلى من يماثلهم مذهبًا أو يقرب منهم جنسًا..)[1]!.

فالنديم الذي سبق وأوردنا له الشواهد علي دعوته لإصلاح الدولة العثمانية، وتجديد شباب إدارتها، هو الذي يسفه هنا دعاوى (المغفلين الذين حنكتهم قوابلهم باسم أوروبا)! ضد الدولة العثمانية؛ لأنها دعاوى معادية لهذه الدولة، لحساب الرصيد الاستعماري الأوروبي، وليست دعوات للإصلاح تستهدف تقوية السياج العثماني حماية للشرق وحضارته في الصراع مع الأوروبيين- كما كان حال وموقف النديم وتيار الجامعة الإسلامية إزاء العثمانية والعثمانيين.

(1) المصدر السابق. العدد الثاني والعشرون. ص 513.

هذا عن الدين- والدين الإسلامي على وجه الخصوص- كثابت من ثوابت الهوية الحضارية الشرقية، فهو (أقوى دعائم العمران، والسبب الوحيد في المدنية، ومرجع المجد وأصل الشرف؛ الذي تسري جاذبيته في الجسم سَرْي الماء في العود).

* وذات المكانة التي أحلّها النديم للدين في ثوابت الهوية الحضارية، وأحلّها للغة العربية، (فاللسان العربي- (عنده) هو لسان الدين، وترجمان الوطن. واللغة العربية مرتبطة بالدين ارتباط الروح بالجسد، وإذا فقدت الأمة لغتها فقد فقدت الدين والتاريخ الوطني..)[1].

وإذا كان النديم قد رأى في (الدين) و(الجنسية) و(الوطنية) ثوابت الهوية الحضارية التي لا يجوز المساس بها- حتى ولو اقتضت (المنافع) هذا المساس- فلقد رأى اللغة العربية ثابتًا من هذه الثوابت؛ لأنها (لسان الدين) و(ترجمان الوطن) و(عنوان الجامع للجنسية الحافظ له، فالمحافظة على اللغة محافظة على الجنسية، بل وعلى الملك وما يشتمل عليه؛ ولهذا لا تميل أي دولة لنقل التعاليم من لغتها إلى لغة أخرى مهما مست الحاجة إليها، ولا تعطي شهادة لتلميذ أدى الامتحان في جميع العلوم بغير لغته مهما كان تمكنه من اللغة الأجنبية عن لغته، وبهذه الوسيلة حفظت مقاصد الدول، وامتازت كل أمة

(1) المصدر السابق. العدد الخامس والعشرون. ص 593. والعدد الثامن. ص 179.

بخصائصها التي حفظتها لها لغتها..)[1].. فاللغة هي الوعاء الحافظ للخصائص التي تمتاز بها الأمة عن الأمم الأخرى. وهي في حال لغتنا العربية، تزيد؛ لأنها هي لسان الإسلام، الجامع الأكبر لكل مقومات الانتماء الحضاري.

ولأن هذه هي مكانة العربية من ثوابت الهوية الحضارية، فلقد تكالبت عليها التحديات. وكان النديم واحدًا من الذين تصدوا لهذه التحديات. (فلغتنا الشريفة، التي يتكلم بها الآن- (1310 هـ - 1892م) - أكثر من مائة مليون من الناس، يسعى كثير من الناس المحبين للغاتهم أو لذاتهم- في إماتة هذه اللغة، وتحويل هذه الألسنة عن التكلم بها إلى التكلم بغيرها؛ لنفقد بفقدها المجد والشرف معًا..)[2].

وفي مقدمة التحديات اللغوية للعربية، التي تصدى لها قلم النديم:

1 - تحدي اللغة التركية في الولايات العربية، التي حكمها العثمانيون.

2 - تحدي اللغات الأوروبية الزاحفة علي الشرق العربي، في ركاب الاستعمار ومدارس التنصير..

3 - تحدي اللغة العامية، التي يتوسل بها الاستعمار وعملاؤه من الأجراء سبيلًا لإزاحة العربية من ثوابت الهوية الحضارية، تمهيدًا لإزاحة الإسلام والقرآن والتراث؛ لتفقد الأمة عوامل استعصائها على التبعية والذوبان في حضارة الغزاة.

(1) المصدر السابق. العدد التاسع. ص 204.

(2) المصدر السابق. العدد الثامن. ص 169.

ينبه النديم علي دور (تتريك) أجهزة الإدارة بالولايات العربية العثمانية، في تقهقر اللغة العربية. فلقد (كان استعمال اللغة التركية في المخابرات الرسمية من أسباب تقهقر اللغة العربية. ولولا وجود الأزهر بمصر لعدمت اللغة العربية في تلك الفترة التي حكمت فيها الدولة العثمانية البلاد العربية..)[1].

ويشيد بتجربة مصر الحديثة، التي تعربت إدارتها.. وبدور الأزهر، ومكانة القرآن، في استعادة العربية لعافيتها في هذه التجربة المصرية.. (.. فلما تركت الأقلام التركية، وصارت المحررات الرسمية كلها عربية، تقدمت اللغة تقدمًا غريبًا، ونبغ ألوف من المتعلمين في الأزهر والمدارس.. وكان لتقدم أهل الأزهر على أهل المدارس في الإنشاء سبب واحد هو حفظ الأزهريين للقرآن الكريم في الصغر، فذهن الواحد منهم محشو بمادة البلاغة وقاموس الفصاحة وأبدع أسلوب إنشائي..)[2].

ولذلك؛ فهو يدعو إلى تعريب إدارات الدولة العثمانية في الولايات العربية، وذلك (بتعليم أفراد من أبناء الترك والكرد والجركس باللغة العربية، ليكونوا مؤهلين لولاية الأقضية والولايات العربية في الشام والعراق واليمن والحجاز.. فحياة اللغة العربية في بني الترك خصوصًا وفي بني العرب عمومًا حياة للدولة من طريق معنوي)[3].

(1) المصدر السابق. العدد الثامن. ص 176.
(2) المصدر السابق. العدد الثامن. ص 177، 178.
(3) المصدر السابق. العدد الثامن. ص 183.

أما تحدي اللغات الأوروبية للغتنا العربية، فلقد نبه النديم على مسالكه المتعددة، ومنها تهجين العربية بالكلمات الأجنبية. وجعل هذه اللغات الأجنبية هي لغة التعليم في بلادنا. والدونية التي تجعلنا نتعلم لغات الأجانب لنتخاطب وإياهم بها في بلادنا، بدلًا من أن نجعلهم يتعلمون لغتنا كضرورة من ضرورات تعاملهم معنا في أوطاننا، مع جعل تعلمنا للغات الأجنبية سبيلًا لترجمة ما لدى الآخرين من علوم نحتاج إليها.

يعرض النديم لهذه التحديات اللغوية، فيقول: (.. ولا يُرجع باللغة القهقرى إلا أمران):

الأول: كثرة استراق الكلمات الأجنبية واستعمالها في مخاطباتنا الكتابية والخطابية.

والثاني: نقل التدريس من اللغة العربية إلى أية لغة أجنبية، فمتى حصل هذا في أية أمة فقد فقدت لغتها وتبعها الدين والتاريخ الوطني، فإن اللغة مرتبطة بالدين ارتباط الروح بالجسد. فيجب توحيد التعليم، لئلا يطلع الأبناء لا هم مصريون ولا أجانب، ويكونون من هذا الامتزاج العجيب لغة جديدة لا قاعدة لها ولا ضابط، ويعز على الآتي بعدنا أن يعرف دينه أو كتابه لاحتياجه إلى مترجم يترجم له العربية إذ ذاك..)[1]!.

(1) المصدر السابق. العدد الثامن. ص 178، 179، 182، 183.

أما تصدي النديم لتحدي العامية للفصحى- والتي يسميها اللغة الصحيحة- فلقد يبدو غريبًا على الذين اشتهر لديهم النديم (كأُدباتي)، ناظم بالعامية، تفوّق في هذا الفن على أساطينه ومحترفيه. ذلك أن الرجل كان يتوسل- في الصحف التي يصدرها- بفصول مكتوبة بالعامية- اللغة الدارجة- إلى الذين لا يقدرون على مطالعة الفصحى أو فهمها، ولا يرغبون في القراءة بها، وذلك ارتقاء بهم- بواسطة السماع- نحو القراءة بالفصحى وفهمها، وبلوغها إلى حيث نستغني عن العامية كل الاستغناء. وهو يفصح عن منهجه هذا، وعن مقصده، وهو يتحدث عن موقف مجلته (الأستاذ) من هذا الأمر، فيقول: (إنها تشتمل على فصل قصير باللغة الدارجة، لنحول به العامي الجاهل من كراهة سماع الكتب إلى محبتها، فينجرَّ به الأمر إلى سماع الكلام الصحيح، وهناك لا يلزم كتابة غير الصحيح. فاللغة الصحيحة هي الحية؛ لاستعمالها بين الخاص والعام من عقلاء الأمة، واللغة الدارجة هي الميتة؛ لعدم استعمالها في غير الضرورات التي يقتضيها الحيوان بلا لغة)[1]!.

ولأن هذا هو موقف النديم، مع الفصحى- الصحيحة.. الحية- لا مع العامية- الدارجة.. الميتة، كان صراعه ضد دعاة إحلال العامية محل الفصحى موقفًا ثابتًا على مر حياته الفكرية والصحفية.

(1) المصدر السابق. العدد العشرون. ص 468، 471.

ففي يونيو سنة 1881م كتب في جريدته (التنكيت والتبكيت) مقالًا اتخذ له عنوانًا ذا دلالة عميقة في الدفاع عن العربية، والتنبيه على مكانتها في ثوابت الهوية الحضارية- وهو عنوان: (إضاعة اللغة تسليم للذات)!. ويومئذ دارت معركة فكرية بين حراس العربية- النديم، ومعه أحمد أفندي سمير وإبراهيم أفندي الهلباوي- وبين واحد من خريجي مدارس التنصير والتغريب هو أمين شميل (1243 - 1315 هـ، 1828 - 1897م)- الذي استوطن مصر مع شقيقه شبلي شميل (1276 - 1335 هـ، 1860 - 1917) منخرطين في تيار التبشير بالحضارة الغربية بديلًا للحضارة الإسلامية، من خلال المنابر الثقافية والإعلامية، كالمقتطف.. والمقطم.. وجريدة الحقوق- التي أصدرها أمين شميل.

وفي تسعينيات القرن التاسع عشر الميلادي- ومرحلة إصدار النديم لمجلة (الأستاذ)- تجدد جهاده دفاعًا عن الفصحى، الصحيحة الحية، ضد دعاة العامية، الدارجة الميتة، بمناسبة تزعم المهندس الإنجليزي المستر (وليم ويلكوكس) (1852 - 1932) الدعوة إلى استبدال المصريين العامية بالفصحى. وعن هذه المعارك اللغوية، يحدثنا النديم فيقول: (لقد سبق وكتبنا في العدد الثاني في جريدة (التنكيت والتبكيت) فصلًا تحت عنوان: (إضاعة اللغة تسليم للذات)، فعارضنا فيه الفاضل الكاتب أمين أفندي شميل برسالة تبادل الجدال معه بسببها أحمد أفندي سمير وإبراهيم

أفندي الهلباوي. والآن رأينا دعوي المستر وليم ويلكوكس التي مؤداها أن المصريين لا توجد فيهم قوة الاختراع، ولا مانع لهم إلا اللغة الصحيحة، وأنه إذا تحولت الأفكار وحتّمت استعمال اللغة الدارجة في المخاطبات والتآليف العلمية والتدريس أمكن المصريين أن يخترعوا. فرجعنا إلى رسالة أمين أفندي شميل، وقلنا: ما أشبه الليلة بالبارحة!..).

ثم كشف النديم عن المقاصد الحقيقية من وراء الدعوة إلى إحلال العامية محل الفصحى- لغة القرآن الكريم. إنها قطع صلة الأمة بالقرآن مصدر عقيدتها وشريعتها، وصبغة حضارتها- (فالعربية بها نزل القرآن الشريف، الذي هو الآية الكبرى والحجة العظمى لنا معاشر المسلمين، فهو الداعي لحياة اللغة العربية الصحيحة، وهو المقصود لكل محارب للغة، ساعٍ في إماتتها.. وماذا نصنع بكتبنا، التي تجل عن الحصر، إذا تكلمنا باللغة الميتة العامية؟ أنحرقها؟ أم نترجمها بالكلام الفارغ؟ ولماذا لم تكتب الإنكليز كتبهم العلمية وجرائدهم باللغة الدارجة عندهم، تعميمًا للفائدة التي تريد أن تعممها في مصر؟! وهل ترى أن المصريين إذا قرؤوا القرآن باللغة العامية، عند استعمالها ونسيان غيرها، أيرضى عنهم المسلمون؟ أم يعدونهم منهم؟! وهم يعتقدون أن تغيير حرف منه أو تقديمه على ما قبله كفر مخرج للفاعل من الدين؟!..)[1].

(1) المصدر السابق. العدد العشرون. ص 468، 469، 476.

فالدعوة إلي العامية: عداءٌ للقرآن، وسلخ للأمة عن دينها، وقطيعة معرفية مع تراثها وتاريخها وهويتها الحضارية، وعزل لمصر عن الجسد الإسلامي الكبير!.

ومقصد آخر من مقاصد الداعين إلى العامية- من الإنجليز والأجراء الساعين إلى إحلال الحضارة الغربية محل الحضارة الإسلامية- هو تأبيد التبعية للاستعمار في بلادنا. ذلك أن تميزنا اللغوي هو دافع من دوافع حركتنا للتحرر من الاستعمار. (وكم من أمم خضعت لأمم أعظم منها قوة وأشد منها بطشًا، وبقيت محافظة على لغتها، فبعثتها إلى الاستقلال وعزة الملك، كالترك والفرس واليونان وأسبانيا ورومانيا والبرتغال والبلغار. ولو تركوا لغتهم، واستعملوا اللغة الحاكمة؛ لماتت وتجنسوا بالجنسية المتغلبة..)[1].

وإذا كانت هذه الأمم قد اعتصمت بلغتها، كجامع جنسي (قومي)، فإن العربية بالنسبة لأمتنا هي أكبر وأعظم من الجامع الجنسي والقومي. فالتهاون فيها (ينسينا القرآن، الذي لو ترجم بأفصح لغة أجنبية لجاء عبارة عن حكاية يقتدر علي إنشائها أي كاتب، ولضاعت بلاغته العربية. فبقاء العربية الفصحى هو بقاء الدين والجنس معًا. وحاجتنا الدينية إلى لغتنا أشد من حاجة الأمم غير المسلمة إلى لغاتها، فإن الإنجيل لما ترجم تناولوه كما تناولوا الأصل، والقرآن لو ترجم بلغة أخرى لعجزت الترجمة عن أداء مفهومه ومنطوقه..)[2].

***

(1) المصدر السابق. العدد العشرون. ص 469.

(2) المصدر السابق. العدد العشرون. ص 470، 471.

وفي التصدي لمزاعم عجز العربية عن أن تكون لغة العلم الحديث، لم يقف النديم، في دحض هذه المزاعم، عند الاستشهاد بالتاريخ، الذي نهضت فيه بلغة العلم القديم، وإنما استشهد أيضًا بتجربة مصر الحديثة، على عهد محمد علي باشا (1184 – 1265 هـ، 1770 – 1849م) والحقبة السابقة على فرض اللغات الأجنبية على مدارس مصر– (1892م) بقوة الاحتلال. (فهذه المدارس المصرية، قرئت فيها العلوم القديمة والحديثة، الأصلية والمترجمة، ولم يفتها شيء مما كتب في أوروبا، ولم تتغير كيفية التدريس من اللغة العربية إلى اللغة الفرنساوية أو الإنكليزية في بعض العلوم إلا في هذه السنة– (سنة 1892م). وما هو الموجب لتعليم مثل التاريخ والطب والهندسة والجغرافية باللغات الأجنبية، والمتعلم سيُسْتَخْدَم بين من لا يعرفون كلمة أجنبية، وهم فلاحو مصر وعوامها، والكتب العربية في هذه الفنون توجد أحمالًا في المخازن، فأي ضرورة تلجئنا لتركها وشراء غيرها بلغة أخرى؟!. إن نقل التعليم من لغة البلاد إلى لغة أجنبية هو نقل للتلميذ من الجنسية والدين معًا)!.

ثم تنبأ النديم باندحار كل هذه الدعوات، التي تمثل تحديات دينية وقومية للعربية، فقال: (إننا نعلم علم اليقين أنه لو ظهر ألف داع، بل مئات ألوف من دعاة أوروبا لاستعمال لغة تميت لغة القرآن ما وجدوا آذانًا سامعة..)[1]!.

(1) المصدر السابق. العدد العشرون. ص 473 – 475.

ولم يكن النديم داعية للجهل باللغات الأجنبية. وإنما كان داعية لإتقان العربية كي نستطيع أن ننتفع بما نتعلم من لغات أجنبية في الترجمة التي تطلعنا على ما نحتاج مما لدى الآخرين (فالغرض إنما هو تعريب اللغة الأجنبية بعبارة عربية، وعكسه- (أي الترجمة من العربية إلى غيرها)- حتى تجتلب المنافع ونتبادل الفكر، ولا ريب أن العاجز عن اللغة العربية لا يقدر علي ذلك، اللهم إلا بعبارة منسوخة المعنى خالية من الثمرة..)[1]. (ولو فرضنا وتعلمنا اللغات الأجنبية، وتكلمنا بها عند الحاجة إليها، لوجب علينا أن نحافظ على لغتنا العربية ونستعملها في معاملاتنا الخاصة بنا وبين أبنائنا وأهلينا وفي كتب ديننا وعلومنا الأصلية والفرعية، لبقاء الدين والجنس ببقائها..)[2].

***

ولم يقف جهاد النديم في سبيل العربية عند التصدي للتحديات المهددة لوجودها- التركية.. والعامية.. واللغات الأجنبية الغربية- وإنما مد آفاق هذا الجهاد ليشمل الدعوة إلى النهوض بلغة القرآن الكريم؛ وذلك لتفي باحتياجات النهضة الحديثة، وتكون قادرة على منازلة التحديات اللغوية، والانتصار عليها.

(1) المصدر السابق. العدد الخامس والعشرون. ص 594.

(2) المصدر السابق. العدد العشرون. ص 471.

obeikandl.com

فهو يحتفي بتأسيس (مجتمع اللغة العربية بمصر) (1310 هـ، 1893م)- برئاسة السيد توفيق البكري-(1287 - 1351 هـ، 1870 - 1932م) الذي سبق ودعا إلى إنشائه المرحوم عبد الله باشا فكري (1250 - 1306 هـ، 1834 -1889م) ويشير إلى سابق دعوته هو إلى إنشائه (1298 هـ-1881م) بمقاله الذي نشره في (التنكيت والتبكيت) تحت عنوان (إضاعة اللغة تسليم للذات)[1].

ويسهم النديم- إسهام العالم الخبير- بتقديم المقترحات الفنية والتنظيمية إلى (مجتمع اللغة العربية) الوليد.. فهو يقترح له تنظيمًا شاملًا لمختلف التخصصات، بحيث يكون (المجتمع - (المجمع)- عامًّا في كل ما يتعلق بالفنون العربية.. قسم مختص بالمواد اللغوية، وقسم لعلوم الآليات، وقسم للتاريخ وتقويم البلدان، وقسم للترجمة، وقسم للرياضيات) كما يقترح النديم على (مجلس النظار)- (مجلس الوزراء)- اعتماد (مجتمع اللغة العربية) كجمعية لغوية (وإلزام مدرسي اللغة العربية في المدارس وغيرها بالنقل عنها، ثم تتناقل الجرائد المحلية كلماتها وتكررها بالمناسبات لتكون- (وسائل الإعلام)- في مقام مدرسين يعلمون القراء من فوائدها، وبهذه الطريقة تتداول الكلمات المقابلة للكلمات الأجنبية، فتزاحمها العربية مزاحمة تضييق نطاقها..).

(1) المصدر السابق. العدد التاسع والعشرون. ص 673.

كما يقترح النديم على الحكومة اعتماد هذا (المجتمع اللغوي) مرجعية فكرية للدولة (تحيل عليه النظر في المؤلفات الجديدة ليقرر منها الموافق لنشره ويمنع ما يضر بالأخلاق والدين والسياسة).

ويتوجه إلى (المجتمع اللغوي) برجاء وطني (وهو أن يبعد عن الدخول في السياسات. وأن يحفظ الوصلة بينه وبين الأزهر المنير، بعدم تعرضه لشيء مما هو من خصائص الجامع وسماحة شيخه، وبهذا يمكنه أن يستعين بأشياخه في كثير من مواضيعه العلمية، فإن أساسه مبني على العلوم الأزهرية، وأعضاؤه يكون معظمهم من الأزهريين الذين يقدرون على التصرف في العبارات بالاستنباط أو القياس)[1].

هكذا دافع النديم عن العربية، لغة القرآن، وجامعة الجنس، وثابت هوية الأمة الحضارية، وامتد دفاعه عنها عبر مسيرته الفكرية. منذ أن رفع- في صحيفته الأولى- شعار (إضاعة اللغة تسليم للذات). وحتى المقالات الإضافية التي دافع بها عنها في مجلة (الأستاذ).

* ومع (الدين) و(اللغة)- في جوامع الانتماء الثقافي والحضاري- يأتي جامع (الوطنية)، الذي يحفظ استقلال الأمة واستقلال الوطن عن الانقياد للغير والتبعية للآخرين، ذلك (أن جهل الوطنية وحقوقها وواجبات أهلها يسهل على الجاهل الانقياد للغير وتسليمه الوطن، غرورًا بالظاهر،

(1) المصدر السابق. العدد التاسع والعشرون. ص 673.

وجهلًا بالعواقب، إذ لا يعلم من الوطنية إلا أنه ساكن بهذه الأرض، ينتفع بالسكنى فيها انتفاع الوحش بالأودية والمغارات، فلا يعرف تاريخ الحياة الوطنية ولا الأمم المؤسسة لها ولا شرف استقلال الاستيطان ولا مجد وقاية المأوى، وبهذا يكون بين يدي الغير بمنزلة أجنبي يستعمله في مهنته، وليس له إلا أجر أجير ومنزلة نزيل..).

فالوطنية ليست سُكْنَى في بقعة جغرافية، وإنما هي جامعة لشرف استقلال الوطن، ومجد الأمة، حتى لا تكون هذه الأمة- إذا فقدت هذا الجامع- في أرضها بمنزلة الغريب والأجير والنزيل!.

* وكذلك الحال- في عوامل وجوامع الانتماء عند النديم- مع جامع (الجنسية)؛ لأن التفريط في الجنسية، والتجنس بالجنسيات الأجنبية، يجعل المنسلخ من جنسيته متخذًا جنسيته عدوًّا!. (فإذا تجنس المرء بغير جنسيته، بالتقليد واتباع محسنات الغير ومجاراته في أقواله وأفعاله، وقعت جنسيته عنده موقع العدو، وعدم فوائدها التي يأتي بها اجتماع أفراد الجنس)[1].

فالجنسية جامع من جوامع استقلال الذات الوطنية والحضارية، تعصم الذات من (التقليد للغير واتباع محسناته، ومجاراته في أقواله وأفعاله)!.

* وإذا كنا نتحدث اليوم عن (الاقتصاد المستقل) و(التنمية المستقلة) كشرط من شروط (المشروع الحضاري المتميز) فلقد كان النديم علمًا من أعلام

(1) المصدر السابق. العدد الأول. ص 13.

تيار الجامعة الإسلامية والرابطة الشرقية، الذي ارتاد الدعوة إلى هذا الاستقلال الاقتصادي، في مواجهة الهيمنة الاقتصادية الغربية منذ بدايات المواجهة مع النهب الاقتصادي الغربي لثروات عالم الإسلام. والكاتب الأمريكي (لوثروب ستودارد)- في كتابه (حاضر العالم الإسلامي)- يقول عن تيار الجامعة الإسلامية- الذي بلوره وقاده جمال الدين الأفغاني: إن (غاية الجامعة الإسلامية الاقتصادية.. هي: ثروة المسلمين للمسلمين، وثمرات التجارة والصناعة في جميع المعمور الإسلامي هي لهم يتنعمون بها، وليست لنصارى الغرب يستنزفونها. وهي نفض اليد من رءوس المال الغربية، والاستعاضة عنها برءوس مال إسلامية، وفوق جميع هذا، هي تحطيم نواجذ أوروبا، تلك النواجذ العاضَّة علي موارد الثروة الطبيعية في بلاد المسلمين، وذلك بعدم تجديد الامتيازات في الأرضين والمعادن والغابات وقطر الحديد والجمارك، وسائر العقود التي مادامت خارجة من أيدي العالم الإسلامي فهو يظل عالة علي الغرب)![1].

فنحن أمام برنامج للاستقلال الاقتصادي، يمثل قسمة من قسمات استقلالية الهوية الحضارية للأمة، وسمة من سمات مشروع نهضتها المستقلة. وفي إطاره نقرأ ما كتبه النديم عن جناية التقليد للغرب والاستهلاك لمصنوعاته علي اقتصاد الأمة وثروتها. (فلما حصل الاختلاط، وامتدت

(1) (حاضر العالم الإسلامي) مجلد 1 ص 326. ترجمة عجاج نويهض - تعليق: شكيب أرسلان. طبعة بيروت سنة 1971م.

التجارة، واتسع نطاق الزراعة، وساكن الأجنبي الوطني، وتبادل الفريقان الزيارة، قبّح الغربي اقتصاد الشرقي، وعدّه بقاءً على الهمجية والتوحش، وحسّن له التوسع في المآكل والمشارب وآنيتها. وما قصد بذلك إلا تحويل ما بيده من النقود إلى بلاده، واتخاذه أجيرًا[1]. فبعد عقد المعاهدات التجارية مع دول أوروبا، جيء بمصنوعاتها إلي مصر، فهجم عليها الأهالي، وأقبلوا على البضائع الأجنبية وتركوا صنائعهم وصُنّاعهم. ولا زال الأهالي يميتون الصنائع شيئًا فشيئًا حتى صارت الملابس والفرش والأواني، وكل ما يلزم الإنسان من ضروريات الأثاث من صناعة الأجانب، وبهذا ماتت الصناعة موتًا[2]..) مع أنه (يوجد بالمحلة الكبرى صناع يصنعون الأقمشة اللطيفة المحتاج إليها لباسًا وأثاثًا مع إتقان الصنع وجودة القماش وحسن المظهر، لكن الناس مغرمون بمصنوع الأجنبي الذي لا يساوي شيئًا في جانب مصنوع البلاد[3]. لقد أماتوا بهذا الإسراف الاقتصاد الشرقي. ولما لم تكفهم وارداتهم لاستحضار الآلات والمطاعم والمشارب الجديدة اقترضوا ورهنوا الأملاك والأطيان!..)[4].

---

(1) (الأستاذ) العدد الثالث. ص 53.

(2) المصدر السابق. العدد الثامن. ص 186، 187.

(3) المصدر السابق. العدد السابع والثلاثون. ص 894.

(4) المصدر السابق. العدد الثالث. ص 55.

إنها التبعية الاقتصادية التي جلبتها نزعة التقليد والمحاكاة للغرب. وعلاجها- في رأي النديم- هو استقلال الهوية، الذي يجعلنا نميز في ما لدي الغرب بين (النافع- الضروري) وبين ما لا يوافق (أخلاقنا وعاداتنا). (فلو أخذنا من محسنات الغرب ما لابد منه، واقتصرنا على ما يوافق أخلاقنا وعاداتنا لحفظنا لأنفسنا حق الانتفاع بثمرة الاقتصاد الشرقي..)[1].

هكذا تكلم النديم عند الاستقلال الاقتصادي، سبيلًا للحفاظ على الثروة، وطريقًا لتنمية مكونات الاستقلال الحضاري أمام مخاطر وإغراءات التقليد والمحاكاة، وكأنه- رحمه الله- يتكلم عن مشكلاتنا، ساعة كتابة هذه السطور!.

***

* والنديم، الذي كانت حياته (صيحة في سبيل الحرية)- للفرد، والوطن، والأمة- والذي صارع قوة الاستبداد، وهرب بحريته من حبل المشنقة، وعانى من النفي والتغريب عن وطنه- لم يخلط- هذا العاشق للحرية- بين مفهومها الإسلامي، الذي ينتمي إليه، ويزكيه، ويدعو لإشاعته، وإقامة نظمه ومؤسساته، وبين مفهومها الغربي، القائم على (الإباحة.. وعدم التعرض لأحد في أموره الخاصة)، الذي رفضه، معتبرًا إياه (بهيمية) إن ساغت في أوروبا، فهي غير سائغة في عالم الإسلام، الذي ضبطت شريعته حقوق الناس بحقوق الله، وحريات الناس بالأخلاق والعادات والقواعد الدينية.

(1) المصدر السابق. العدد الثالث. ص 56.

وعن هذا الملمح من ملامح منظومة الانتماء الثقافي للنديم كتب الرجل فقال: (.. ولئن قيل: إن الحرية تقضي بعدم تعرض أحد لأحد في أموره الخاصة، قلنا: إن الحرية عبارة عن المطالبة بالحقوق والوقوف عند الحدود. وهذا الذي نسمع به ونراه رجوع إلي البهيمية وخروج عن حد الإنسانية، ولئن كان ذلك سائغًا في أوروبا فإن لكل أمة عادات وروابط دينية أو بيتية، وهذه الإباحة لا تناسب أخلاق المسلمين ولا قواعدهم الدينية ولا عاداتهم. والقانون الحق هو الحافظ لحقوق الأمة من غير أن يجني أو يغري بالجناية عليها بما يبيحه من الأحوال المحظورة عندها..)[1].

وعندما يعرض النديم لتطبيقات المفهوم الغربي للحرية- مفهوم الإباحة وعدم التعرض لأحد في أموره الخاصة- على (حرية المرأة)، وما أثمرته تطبيقات هذا المفهوم من إباحة الزنا بالتراضي والاختيار، دون مراعاة للضوابط الشرعية. يرى النديم في ذلك (حرية مدنية ينفر منها البهيم، وهي لا توافق عوائد أهل الشرق ولا أديانهم، فقد اتفق المسلمون والنصارى واليهود والمجوس على الغيرة على النساء وصيانتهن، وأجمعوا على تحريم الزنا وقبحه، فإطلاق الحرية في هذا الباب مذمومة. وما سمعنا بمثل هذا في الجاهلية الأولى..)[2]!.

(1) المصدر السابق. العدد التاسع عشر. ص 439.

(2) المصدر السابق. العدد الثامن والعشرون. ص 912.

ولا يحسبن أحد أن موقف النديم هذا كان نابعًا من عداء للمرأة، فنساء مصر- قبل سنوات طويلة من حديث قاسم أمين (1280 - 1326 هـ، 1863 - 1908م) عن تحريرهن- عندما تطلعن إلى إصدار مجلة نسائية، قد وقع اختيارهن على عبد الله النديم. وعن هذا المشروع- لإصدار جريدة (المربي) الأسبوعية- للمرأة والطفولة- كتب النديم يقول: (تقدمت لنا كتابة من ثلاث وعشرين سيدة يطلبن إنشاء جريدة تختص بهن. وهذا الذي حملني على إجابة طلبهن في نشر جريدة أسبوعية تسمى (المربي). وسنشرك معنا بعض الأفاضل الأطباء لتحرير ما يختص بالأمراض والحوامل. وإنا نشكر السيدات اللاتي اقترحن هذا الاقتراح البدعي، كما نثني عليهن في اختيار هذا الضعيف- (النديم)- لهذه الخدمة، وقد عللن ذلك بقولهن: (إنه لا يقدر على تحرير جريدة بلساننا ولسان الأطفال إلا مثلك، فلذلك رجوناك هذا الرجاء).

ثم يستطرد النديم، فيدعو النساء إلى الإسهام في تحرير هذه المجلة بالأفكار والمقالات، فيقول: (وإني كذلك، أرجوهن أن يبعثن لي أفكارهن في المواضيع التي تطرأ عليهن. نشر الفضائل سيدات العصر، كما نشر المتقدمون فضائل من عاصروهن. ولهن أن لا نصرح باسم واحدة منهن إلا من شاءت ذلك. والله تعالى يوفقنا لما فيه رضاه ونفع الأمة ذكرانًا وإناثًا)[1].

(1) المصدر السابق. العدد الرابع والثلاثون. ص 804، 805.

وفي هذا الذي كتبه النديم بيان على أن النموذج الذي كان في فكره، لهذه النهضة النسائية، لم يكن النموذج الغربي- الذي رأى في حريته وتحريره (حرية مدنية ينفر منها البهيم)!- وإنما كان نموذج الحرية والتحرير للمرأة الشرقية هو النموذج الشرقي الإسلامي في عصور ازدهار حضارتنا الإسلامية. فلقد كان النديم يريد- وفق عبارته- (نشرًا لفضائل سيدات العصر كما نشر المتقدمون فضائل من عاصروهن..).

ونقد النديم للمفاهيم والمضامين والتطبيقات الغربية في (الحرية الشخصية) وفي (حرية المرأة) لم يمنعه من طلب الاستفادة من الجوانب الإيجابية لمفاهيم الغرب وتطبيقاته للحرية في ميادين أخرى. فلقد دعا إلى النظر في تجارب الغرب في (التعددية الحزبية)، مع ضرورة قصر عضوية هذه الأحزاب على (الوطنيين)، وتطهيرها من دعاة التقليد والمحاكاة للأفكار الغربية (الطائرين خلف المحسنات الأوروبية)!. فهذه (الأحزاب لا يمكن تكوينها إلا من الوطنيين، الذين يخافون أن تطأ خيل الغرباء قبور أجدادهم الحافظة لعظام المجد الوطني والشرف الملكي. فعلينا أن نبحث في طرق أحزاب أوروبا وروابطهم، وكيفية سيرهم، وموجب استمرارهم على ما هم فيه. ولتكن لكل حزب جرائد تنشر أعماله وتؤيد أقواله، بحيث تلزم مشربًا لا تتحول عنه، ولا تتلون بتلون المطامع، ولا

يلزم من اختصاصها أن تكون مضادة لغيرها من الجرائد في كل ما يكتب فيها، فإن الجرائد مدارس الأفكار، تحافظ على مبادئ حزبها، وتجاري الجرائد في المقالات العامة والأفكار النافعة. وإلا إذا تركت الأحزاب والجرائد، وأخذت كل ما يقال بالقبول، من غير بحث في مصدره وما تحته من الدسائس، تحول مجرى سيلها الوطني إلى الأودية الأجنبية، ووقعت في أشراك أوروبا وهي لا تشعر. ولتكن مطهرة من ذوي الأفكار الفاسدة، محفوظة من الطائرين خلف المحسنات الأوروبية)![1].

فهو في الحريات الفردية والشخصية، يريد مفهومًا متميزًا عن المفهوم الغربي، مضبوطًا بحدود الله وحقوقه وأخلاقيات الأمة وعوائدها.. وهو في تكوين الأحزاب، وفي صحافتها، يريد ضبط آفاقها بالمصالح الوطنية، وبمميزات الانتماء الثقافي والخصوصية الحضارية، وذلك حتى لا توقعنا هذه الحريات (في شراك أوروبا.. والأفكار الفاسدة للطائرين خلف المحسنات الأوروبية)!.

ومن موقع العشاق للحرية، انتقد النديم نظم التغلب والاستبداد الشرقية، تلك التي حرمت الأمة من ثمرات نظام الشورى، بل واضطهدت العقلاء والنبهاء خوفًا علي استبدادها، حتى جعلتهم عبرة أخافت بها الجمهور!. (فلقد أخطأ الشرقيون طريق الشورى بسبب الجهالة التي عمت الأمم الشرقية، فلم

(1) المصدر السابق. العدد العشرون. ص 463 – 465.

يكن عند ملوكهم ثقة بأعيانهم ووجهائهم، ولا يحبون كثرة العقلاء خوفًا من التغلب الذي يحلم به كل ملك شرقي، وهو وهم لا حقيقة له؛ ولذا نراهم نبغ في ممالكهم أناس وضعوهم تحت سوط التضييق حتى يبغض الغير طريق العقلاء والنبهاء فرارًا من الوقوع فيما وقعوا فيه من البلاء والعناء)[1].

وفي النظم التي سمحت بألوان من الشورى، ينتقد النديم (التعويل على استشارة أرباب الأموال وأهل الوجاهة، من غير تخير العقلاء منهم ولا تمييز الأغبياء من الأذكياء..) في الوقت الذي أنفت فيه هذه النظم (من استشارة الفقراء ومفاوضة الضعفاء وإن كانوا قد امتلئوا علمًا وكسوا نباهة)!.

ويرد على الذين يزعمون ملائمة الشورى للغرب دون الشرق، داعيًا إلى الاقتداء بالغرب في مسيرته (الشوريَّة)، التي صحح فيها أخطاء التجربة (الشوريَّة) بالمزيد من الإصرار على السير على دربها. (فلئن قيل: إن الشورى لا تنجح في الشرق- كما يزعم محبو الأثرة والانفراد بالتسلط- قلنا: إن اتحاد الشرقي مع الغربي في الخَلْق يرد هذه الدعوى الباطلة. وإنما ثابر الغربيون على العمل بالشورى، وأخذوا يصححون الأغاليط ويراجعون الخطأ. حتى تَرَبّت الملكات، وما أوصلهم لهذه الغاية إلا اعتمادهم على الفضاء الأذكياء منهم، حتى اضطر الأغنياء والوجهاء لدراسة العلوم والفنون السياسية التي بها ترشحوا للدخول في أندية الشورى..)[2].

(1) المصدر السابق. العدد الخامس عشر. ص 351.

(2) المصدر السابق. العدد الثالث والثلاثون. ص 764، 765.

* كذلك دعا النديم إلى إحياء عاداتنا في التجمعات، وفي الأعياد، وانتقد تقليد الغربيين. فلقد تميزت مناسبات اجتماعاتنا - تاريخيًّا - (بالخطب الحاوية لدراسة الأحوال وجمع الآراء وتنبيه الأمة على ما يجب لها من الضرورات. أما جعل الزيارة- في الأعياد- قاصرة على كل عام وأنتم بخير، أو الاقتصار على إرسال ورق الزيارة- (بطاقات التهنئة)- بالبوسطة؛ تقليدًا للأوروبيين، فهو جهالة، وإعدام لثمرة العيد بالمرة)![1].

* ولم يكن النديم متزمتًا في الموقف من الفنون- ومنها فن الغناء- السماع- لكنه كان داعية لمراعاة الخصوصية الشرقية التي ربطت الفنون (بالفضيلة والمزايا الجميلة) فدعا إلى إقامة أندية وطنية للغناء المصري، تكون (مجالس للسماع، خالية من الغوغاء وأم الخبائث- (الخمر)- فإن التِّغنِّي بالشعر اللطيف، الحاوي للمعاني الرقيقة، المنبه لأفكار العامة للسعي خلف الفضيلة والمزايا الجميلة، مما يحرك الطباع للعمل، ويبعث في النفوس رغبة فيما تضمنه الشعر من مقاصد الشعراء الجميلة. وحبذا لو كان لنا مَغْنًى مصري، خال من الخمور والمومسات والغوغاء، لا يدخله إلا أناس مشتركون فيه شهريًّا أو سنويًّا بتذاكر مخصوصة، برئاسة أشهر المغنين، كالمجيد المتفنن أمير الأغاني عبده أفندي الحمولي وأصحابه الشيخ يوسف خفاجة ومحمد أفندي عثمان وأحمد أفندي الليثي وأمثالهم، ويشترط أن يكون لهذا المغْنَى مجلس ينظر فيما يُغَنّى به من الأشعار والأدوار، بحيث يحجر

(1) المصدر السابق. العدد الرابع والثلاثون. ص 802، 803.

على الأدوار السخيفة والضروب الخارجة عن حد الآداب، فلا يرخص للمغنين إلا بما في سماعه تنشيط، وفي كلماته معان تعجب العقلاء ويرضاها الفضلاء. كما يشترط أن يكون المغْني المصري تحت إدارة مصريين، لا يشاركهم في إدارته أجنبي؛ ليكون وصفه بالمصري جاريًا على حقيقته)![1].

هكذا نظر النديم إلى الغناء، باعتباره فنًّا وطنيًّا جميلًا، يسهم في تميز هوية الأمة وخصوصية حضارتها، بل ودعا إلى جعله مؤسسة وطنية تنهض بدورها في مواجهة التحديات التي تواجه الانتماء والتحرر والنهوض!.

* وإن الإعجاب ليزداد بالنديم عندما نرى اتساع آفاقه التي التمس فيها مقومات الانتماء الثقافي ومنطلقات النهوض الحضاري، حتى لقد نبه على دور (الآثار.. والعاديات)، بل وحتى عظام الأسلاف ومقابرهم، في الانتماء الثقافي المتميز لتاريخنا الحضاري المتميز. وحذر من محاولات الغرب أن ينبش ويسرق، مع تاريخنا، عظام العظماء من الأسلاف والأجداد!. فتحدث النديم إلى أبناء أمته قائلًا ومحذرًا: (عما قريب تُنْبَشُ قبور آبائكم وأضرحة عُبّادكم وسادتكم؛ لتؤخذ تلك العظام النخرة إلى أوروبا، حتى لا يكون هناك أثر لذي مجد من الشرقيين، فإن خفتم من ذلك فاتخذوا أعظم الوسائل لبقاء موتاكم متوسدي تراب قبورهم، فإننا نرى الأوروبيين ينقلون عظام موتاهم من بلاد حاربوا فيها ليحفظوها في أوطانهم حتى يزورها الآتي ويقرأ تاريخها العجيب)[2].

(1) المصدر السابق. العدد الثالث عشر. ص293، 294.

(2) المصدر السابق. العدد الثاني والعشرون. ص 530.

فالآثار والعاديات وأضرحة الأولياء ومقابر العظماء، شواهد على المجد التاريخي، وسلاح من أسلحة الانتماء الثقافي في مواجهة التحديات الغربية التي بلغت في الشراسة حد نبش القبور، وسرقة العظام النخرة، تجريدًا لأمتنا من أمجادها!.

* كذلك وقف النديم- في كتاباته عن تراث الأمة، الحامل لخصوصية انتمائها الثقافي- أمام مؤسستين من مؤسساتها العتيقة العريقة الموروثة.. الأزهر، والطرق الصوفية. ولقد تميزت وقفاته بنظرة تجديدية، تحافظ على العراق وخصوصية الانتماء، مع التطلع للمستقبل الذي يستدعي تطورًا من داخل النسق الفكري، يحافظ على ثوابت الهوية ويستجيب لدواعي المستجدات.

فهو يعلن أن (منكر فضل الأزهر كمنكر نور الشمس في اليوم الصائف)[1].. وعلماء الأزهر (هم أئمة الناس في السير إلى المدنية، وهم والملوك في رتبة الأبوة بالنسبة إلى الأمم، بل هم الآباء الذين يؤهلون الملوك للقيام بوظائفهم، فالرتبة العلمية هي الرتبة العليا في العالم الإنساني)[2].

وهو يلح على الحفاظ على استقلال الأزهر عن الحكومة والدولة، وخاصة بعد أن غدت الحكومة والدولة خاضعة لسلطان الاحتلال، ويدعو (ديوان الأوقاف) إلى عدم المساس باستقلال الأزهر، فيقول: (وأملنا من

(1) المصدر السابق. العدد السادس والعشرون. ص 614.

(2) المصدر السابق. العدد السادس والعشرون. ص 603.

ديوان الأوقاف معرفة استقلال الجامع الأزهر واحترام شيخه وعدم إدخاله في الملحقات التي تصيره فرعًا وهو أصل لا يصح أن يلحق بغيره استتباعًا، فإن تقلبات الأحوال حذرتنا من التهاون في مثل هذا الاستتباع- ولا ينجي الأزهر من تلاعب الأفكار به إلا استقلاله تحت إدارة شيخ شيوخه، وإن ثقتنا بالقائمين بالأعمال الآن لا تمنع من تخوفنا من المستقبل إذا استمر الاحتلال لأجل طويل، معاذ الله)![1].

وهذا الأزهر المستقل - الذي هو أصل لا يصح أن يلحق بغيره- كان النديم واحدًا من دعاة إصلاح مناهجه، وتجديد علومه، وتأهيل علمائه بالمعارف والعلوم التي تجعلهم مالكين لمعارف العصر مع معارف التراث، بل وكان النديم داعيًا إلى تربية علماء الأزهر تربية سياسية تجعل لهم دورًا في شئون الدولة إلى جانب أدوارهم التقليدية في شئون الدين. فأنت (ترى كل مشتغل بالأزهر منصرفًا عن الدنيا وما فيها، فلا يقرأ الجرائد العلمية ولا السياسية، ولا يعرف شيئًا من أحوال الممالك، ولا يقرأ تقويم البلدان (الجغرافيا)، ولا علم له بشيء من الجاري بين الملوك والطوائف، ولا وقوف له على حوادث الحروب واختلاف الأمم، ولا إلمام عنده بصنعة أو زراعة أو أصول تجارة، ولا يبحث في مخترع يسمع به ومقترح يرد عليه، كأنه في جب لا ساكن فيه إلا من ماثله في هذا التجرد الشنيع، مع إنه يعلم أنه يطلب العلم ليكون مؤهلًا للإفتاء والقضاء،

(1) المصدر السابق. العدد الثامن والثلاثون. ص 919، 920.

وهاتان الوظيفتان أرقى وظائف السياسة القضائية المتصلة بكثير من الفروع الإدارية. لقد أبعدت جموع العلماء عن مجالس الأمراء لعدم اقتدارهم على مشاركتهم في تبادل الأفكار، إذ لا يعلمون من لوازم الدولة شيئًا..)![1].

ولهذا الموقف التجديدي، الذي اتخذه النديم، من مؤسسات العلوم التراثية- والأزهر في طليعتها- كان تقدير النديم لمنهاج (دار العلوم)، الجامع بين الموروث وبين الجديد (فدار العلوم خَرَّجت للمعارف أفاضل حازوا فضيلتي الأزهر المنير والمعارف البهية) جميعًا![2].

***

وفي تحديد النديم لدوائر انتمائه الفرعية، بإطار جامع الإسلام، قال: إنه عبد الله النديم، الإدريسي، الحسني، الأشعري، الشافعي، الخلوتي، الإسكندري..)[3].. فذكر الطريقة الصوفية التي ينتمي إليها- (الخلوتية)- واحدة من دوائره في الانتماء.

لكن ثقافة النديم الإسلامية كانت ثقافة العالم الذي يرى التصوف الحق هو طريق الأئمة الذين التزموا - في أخذ الدين والفكر الإسلامي - مصادرهما الحقَّة: الكتاب، والسنة، والإجماع، والقياس. والذين رأوا التصوف سبيلًا

(1) المصدر السابق. العدد السادس والعشرون. ص 611، 612.
(2) المصدر السابق. العدد الثاني. ص 36.
(3) المصدر السابق. العدد الحادي والأربعون.. ص 999.

لتهذيب النفس والارتقاء بها على سلم الرياضات الروحية، ملتزمين في كل مراحل الطريق بأحكام الدين وفق قواعد أهل السنة في استنباط الأحكام. فطريق التصوف الحق - عند النديم - هو (الطريق المسلوك للقوم، المبني على الإخلاص في العمل وحب الخلوة والبعد عن الناس والصمت عن اللغو وملازمة الذكر ومداومة السهر فيه والتهجد والزهد فيما في أيدي الناس والتمسك بالسنة والإرشاد إلى الطريق المستقيم)[1].

ومن هذا الموقع للتصوف الملتزم بالشريعة كان نقد النديم للبدع الفكرية- بل والكفرية- وللممارسات الخرافية التي التصقت بكثير من طرق الصوفية، والتي حسبت على التصوف زورًا وبهتانًا. فبعد أن حدد طريق التصوف الحق، استطرد فقارن بينه وبين ركام الانحرافات والخرافات السائدة لدى كثير من المنتسبين للتصوف، فقال: (.. وأين هذه الأصول الشريفة مما نراه الآن من الخروج عن الحدود، واستبدال السنة بالبدعة، وترك الشرع بهوى النفس، والطامة الكبرى دعوى بعض الأشياخ وانتحاله ما يضر بالعقيدة، وإضلاله العامة بما ينقله إليهم عن بعض الصوفية، مدعيًا وصوله إليه من طريق الفتح أو الإلهام، فقد كثرت النحل والبدع، وسمعنا من أقوالهم ما ليس من ديننا ولا يقول به أهل دين آخر، اللهم إلا عند البوذية من المجوس فإن لهم أقوالًا تشبه أقوال القائلين بوحدة الوجود، وهم لا يدرون معنى القول بالوحدة. ولله درُّ (العلامة الشيخ

(1) الرابع والثلاثون. ص 787.

جمال الدين- (الأفغاني)- حيث أخبر السيد البكري- (شيخ مشايخ الطرق الصوفية)- أن القول بوحدة الوجود أصله دين قدماء اليونان، ودخل في العرب عند ترجمتهم كتبهم، فهو دين متداخل في دين، من غير شعور الآخذين به)[1].

وغير هذه (البدعة- الفكرية- الكفرية)- القول بوحدة الوجود- والتي جعلت هؤلاء المبتدعين يتغنون بعبارات من مثل: (وما الكلب والخنزير إلا إلهنا)!. و(أنا من أهوى ومن أهوى أنا)[2]! هناك الممارسات البدعية في الموالد، حتى لقد قال الإفرنج: لنا كرنفال في السنة، ولكم في كل مولد كرنفال)![3].

يهاجم النديم كل ذلك، قائلًا: (فهلا اتخذ الناس طريقة للموالد والمجالس غير هذه الطريقة الشنيعة، وهلا رجع هؤلاء الجهلة عن بدعهم والتزموا طرق أشياخهم الذين يدعون أنهم على آثارهم؟! وما هم إلا في أيدي الشياطين يلعبون بهم كيف يشاءون. إنهم إن تمادوا في بهتانهم وافترائهم على الله ورسوله، اضطررنا لكتابة رسالة في عقيدتهم وفسادها، وأوردنا أقوال أهل السنة فيها، وتكفيرهم القائلين بوحدة الوجود)![4].

---

(1) المصدر السابق. العدد الرابع والثلاثون. ص 787. والعدد الخامس والثلاثون، ص 841.
(2) المصدر السابق. العدد الرابع والثلاثون. ص 788.
(3) المصدر السابق. العدد الرابع والثلاثون. ص 789.
(4) المصدر السابق. العدد الرابع والثلاثون. ص 786، 788.

لقد كان انتماء النديم، في الثقافة الدينية إلى الأشعرية في الأصول- وهي تيار الوسطية الإسلامية، الذي استقطب جمهور الأمة في تصورات الاعتقادات، وإلى المذهب الشافعي- في فقه الفروع- وهو الذي استقطب جماهير واسعة في مصر، بعد أن استوطنها الشافعي، محمد بن إدريس (150 - 204 هـ، 767 - 820م) وأبدع فيها مذهبه الجديد، وإلى التصوف السني- في طريق تهذيب النفس بالمجاهدات الروحية.

وكان في جميع دوائر هذا الانتماء الثقافي عقلًا ناقدًا، وفكرًا مجددًا، كواحد من علماء وأعلام مدرسة التجديد الديني والإحياء الإسلامي- مدرسة الجامعة الإسلامية.. والرابطة الشرقية- التي تبلورت من حول موقظ الشرق وفيلسوف الإسلام جمال الدين الأفغاني.

obeikandl.com

الآخر.. السياسي، والحضاري، والثقافي

وفي مقابل هذا (العالم الثقافي) الذي انتمى النديم إلى دوائره ومكوناته ومنطلقاته ومثله ومعاييره.. عالم الإسلام والجامعة الشرقية، والذي اتخذ فيه موقعه، كواحد من تيار الإحياء والتجديد. كان هناك (الآخر) السياسي والحضاري والثقافي الذي كانت حياة النديم ملحمة من ملاحم الصراع معه، والنقد له، والكشف لأحابيله التي نصبها للشرق والشرقيين. كان هناك الغرب الاستعماري، وتبشيره الديني، وغزوه القيمي والثقافي، وكان هناك (الأجراء) و(العملاء)- من أبناء جلدتنا- الذين اتخذوا موقع (التبعية) و(الأدوات) للاستعمار الغربي في بلادنا!.

* فالغرب - كمشروع استعماري - قد وظفت دوله الأوروبية النظام الدولي والمعاهدات الدولية لحل تناقضاتها وتوحيد كلمتها في مواجهة الشرق وفي سبيل استعماره (فبالمعاهدات الدولية اجتمعت كلمة ملوك أوروبا على حفظ الوحدة الأوروبية من مس الشرق لها مهما تقلبت المسائل الدولية بين أيديهم، وعلى توجيه الهمم إلى الشرق فتحًا واستعمارًا..)[1].

(1) المصدر السابق. العدد الخامس عشر. ص 346.

* والاستعمار الغربي يحاول أن يستر مقاصده- في النهب الاقتصادي، والاستبداد السياسي، والاستعلاء العنصري، والمسخ الثقافي والقيمي، والتعصب الديني- بشعارات كاذبة عن (الإصلاح وبث المدنية). ذلك (أن دولة من دول أوروبا لم تدخل بلدًا شرقيًّا باسم الاستيلاء، وإنما تدخل باسم الإصلاح وبث المدنية، وقطع عروق الجهالة والخشونة من العالم وهي علل باطلة ودعاوى كاذبة يبعث على افترائها حب الاستبداد من أمم تدَّعي الحرية وهم لم يشتموا لها رائحة إلى الآن[1]!. فهم يربون إنسانهم على عداوة مثله، ويسقونه كأس البغضاء يوم فطامه من ثدي أمه، فيخرج منكرًا على مثيله صورته، مدعيًا أن غيره وحشي الطبع همجي السير، وأن الإنسانية محصورة في حشو جلده!. منكرين وحدة الإنسانية، كرابطة كبرى بين جميع سكان الدنيا..)[2].

ولقد فضحتهم ممارساتهم الاستعمارية في بلادنا، فبالنهب الاقتصادي، والاستبداد السياسي (أصبح الأجنبي الحقير في بلادنا أعز من اللورد والسير والبارون في بلاده[3]!، وبالقوانين الأجنبية والمحاكم الأجنبية، التي لا يدري الفلاح شيئًا من أصولها)[4] جردوا هذا الفلاح من ممتلكاته!.

---

(1) المصدر السابق. العدد الثاني والعشرون. ص 514، والعدد الرابع والثلاثون. ص 794.

(2) المصدر السابق. العدد الثامن عشر. ص 412.

(3) المصدر السابق. العدد التاسع والثلاثون. ص 946.

(4) المصدر السابق. العدد الثامن عشر. ص 410.

* والغرب- كدوائر حكم، وجماهير غفيرة- قد استعان على تبرير اجتياحه لديارنا واحتقاره لثقافتنا، بتشويه صورة ديننا الإسلامي في وعي أبنائه، فهم يزعمون (أن جماعة من العرب دعتهم الفاقة إلى اتخاذ قطع الطرق وسيلة لثروتهم، فاتخذوا لهم رئيسًا اسمه محمد بن عبد الله، وساروا تحت رأيه، وأخذوا في مهاجمة الأمم ونهب البلاد، فلما علت كلمتهم وسرى صوتهم في الأقطار، ادَّعى قائدهم أنه صاحب شريعة، وأخذ يضع لهم تعاليم دينية جمعهم عليها..)![1].

* والغزوة الغربية لبلادنا الشرقية، لا تقف عند احتلال الأرض ونهب الثروة، وإنما هي- مع ذلك- غزوة للقيم والأخلاق، تستهدف حل عروة الدين الإسلامي التي هي أوثق العرى في جامعتنا الشرقية، وإحلال المدنية البهيمية محل المدنية الشرقية الملتزمة بمثل الدين ومعاييره!.

يرى النديم ذلك، فيكتب تحت عنوان (العَدْوَى الأوروبية للبلاد الشرقية) فيقول: (إن من قابل بين بلاد الشرق قبل استيطان الأوروبيين بها وقبل استيلاء بعض دول أوروبا على بعضها وبين حالتها الراهنة، من حيث الآداب العامة، رأى فرقًا كبيرًا وتباينًا عظيمًا. فإن الواقف على عادات الشرقيين وقواعد أديانهم يعلم أن المسلمين والمسيحيين والإسرائيليين يرون تحريم الزنا من الجهة الشرعية وقبحه من الجهة العقلية، ويرون

(1) المصدر السابق. العدد الثامن عشر. ص 422.

صيانة الأعراض من الواجبات. وكانت الحكومات الشرقية محافظة على الآداب الشرعية والحقوق الشخصية، فكانت الأعراض مصونة والرجال آمنين على بيوتهم، غابوا أو حضروا. وكان الرجال المسلمون أبعد خلق الله عن الخمر، والإسرائيليون لا يشربونها إلا في الأعياد، والمسيحيون لا يشربون إلا القليل في أوقات مخصوصة، أما نساء الأقسام الثلاثة، فإنها ما كانت تذوقها، ولا كان الرجال يدخلونها عليهن؛ لعلمهم أن ما بعد سكر المرأة إلا الافتضاح والميل إلى البغاء. فلما تداخل الأوروبيون في البلاد الشرقية، بالتجارة والتغلب، أفسدوا أخلاق الرجال والنساء بما أدخلوه فيهم من مسمَّى مدنيتهم التي هي رجوع إلى البهيمية. وكنا نتألم نحن معاشر المصريين من هذا العيب القبيح، ظنًّا منا أن ما أدخله الإفرنج من المصائب لم يصب به غيرنا، ولكننا علمنا من أحوال تونس ما هو أقبح وأشنع، فعلمنا أن ذلك أمر مقصود لكل دولة أوروبية حلت بلادًا شرقية، لحل عروة الدين التي هي أوثق العرى في الجامعة العصبية والالتئام الوطني. لقد أسودَّ وجه المجد بما يسفه أحلام الشرقيين ويلحقهم بالقرود في التقليد الأعمى)![1].

* ومع تغيير القيم والعادات، وحل عروة الدين، التي هي أوثق عرى الجامعة العصبية والالتئام الوطني- استهدفت هذه الغزوة الغربية إحلال القانون الوضعي محل الشريعة الإسلامية وفقه معاملاتها، وإحلال النزعة

(1) المصدر السابق. العدد الرابع والثلاثون. ص 779 – 782، 784.

الوضعية والفلسفة المادية محل التصورات الإيمانية في تفسير الكون والحياة والتاريخ، وإحلال اللغة الأجنبية محل العربية، (إن دولة من دول أوروبا لم تدخل بلدًا شرقيًّا باسم الاستيلاء، وإنما تدخل باسم الإصلاح وبث المدنية، وتنادي أول دخولها بأنها لا تتعرض للدين ولا للعوائد، ثم تأخذ في تغيير الاثنين شيئًا فشيئًا. كما تفعل فرنسا في الجزائر وتونس؛ حيث سنت لهم قانونًا فيه بعض مواد تخالف الشرع الإسلامي، بل تنسخ مقابلها من أحكامه، ونشرته في البلاد، واتخذت لتنفيذه قضاة ترضاهم، ولما لم تجد معارضًا أخذت تحوّل كثيرًا من مواده إلى مواد ينكرها الإسلام؛ توسيعًا لنطاق النسخ الديني. ولم نلبث أن جاريناها وأخذنا بقانون يشبهه، ثم حجرت على المدارس تعليم بعض علوم شرعية، وألمتهم بتعلم لغتها. والأخذ بالطبيعيات والرياضيات حتى لا يشم الأبناء رائحة الدين؛ لئلا يعلموا أنهم يغايرونهم دينًا فيثورون عليهم، ولإعدام اللغات الوطنية التي يموت بموتها الدين وحمية الجنس والغيرة الوطنية..)![1].

ولقد أفاض النديم في فضح مقاصد الغرب الاستعماري، كنقيض حضاري وثقافي وقيمي، بل ولم تمنعه القيود التي فرضتها سلطات الاحتلال على اشتغاله بالسياسة- كتدبير يومي للدولة- من الدعوة إلى إجلاء جيوش الاحتلال، وإن يكن قد حبذ الطريق السلمي لتحقيق ذلك (فبالرفق يستخرج الإنسان الحية من وكرها)[2]!.

(1) المصدر السابق. العدد الثاني والعشرون. ص 514، 515.

(2) المصدر السابق. العدد الثاني والعشرون. ص 528.

* ومع ذلك، فإن النديم لم يغفل الوجه الآخر للحضارة الغربية. (فكم للغرب من آثار كانت زينة للشرق، وزيادة في قوته العاملة والمدبرة..)[1]. ومن علماء الغرب من أنصف الإسلام (وأثبت انفراده من بين الأديان بتعليم أساليب الحرية وأفانين الفضائل..)[2].

بل وكان النديم داعية إلى معرفة ما لدى الآخر- بدلًا من الرفض لأنه آت من الآخر- ثم عرض هذا الوافد على أصولنا ومعايير اعتقادنا ومنطلقات انتمائنا الثقافي وخصوصيتنا الحضارية، وبعد هذه الرؤية المقارنة والموقف النقدي يكون الرفض أو القبول. ذلك (أن الذي نراه مغايرًا للدين، لم تظهر لنا مغايرته إلا بعدم الاشتغال به، ووصوله إلينا على يد من يخالفنا دينا، فلو اشتغلنا به لأمكننا أن نرده إلى أصولنا بالتأويل أو القياس، أو ندافع عن أصولنا ببيان الفاسد فيه. وأما رده دفعة، بلا نظر ولا استدلال، فإنه تعصب للجهل، لا للعلم والدين، فإننا لا يمكننا أن نقيم حجة على فساده ونحن لم نشتغل به)[3].

ذلك هو منهاج النديم في رؤية الآخر الحضاري والثقافي: العلم بما لديه، وجعل أصول اعتقادنا ومعايير انتمائنا الثقافي هي القاضي فيما نأخذ وفيما ندع

(1) المصدر السابق. العدد الثاني. ص 141.

(2) المصدر السابق. العدد الثامن عشر. ص 423 – والإشارة للعالم الفرنساوي (سيديو) في كتابة (التمدن الإسلامي).

(3) المصدر السابق. العدد السادس والعشرون. ص 608، 609.

من بضاعة الآخرين، وهو المنهاج القرآني، منهاج ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[1]، ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾[2]؟، ﴿ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[3]، بينما كان منهاج الشرك الجاهلي هو التعمية والمصادرة ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾[4]!.

(1) البقرة: 111.
(2) الأنعام: 148.
(3) الأحقاف: 4.
(4) فصلت: 26.

obeikandl.com

الأجَرَاء.. المبشرون بالنموذج الغربي

ولأن أوروبا قد زحفت علي بلادنا- في الغزوة الاستعمارية الحديثة- كما يقول النديم (.. وقد أحكمت التأليف بين القوتين: الدينية، والملكية، فجعلت الأولى سفير وداد والثانية فارس جلاد. ومقبحة لما عليه الشرقيون من دين وسيرة ومعيشة وانتماء وصناعة وتجارة وزراعة، منادية بينهم بأن الغرب محل التشريع ومنبع العلم ومرجع الفضائل، ولا حياة للأمم إلا بما تأخذه عنه، ولا مجد لمن لم ينتمِ إليه، ولا فضل لمن لم يتعلم فيه، ولا شرف لمن لم يتكلم بلسانه ويتعبد بعبادته ويتقيد بعاداته)..![1].

لأن هذه هي آفاق مقاصد الغزوة الأوروبية الحديثة؛ فلقد جعلت في آلياتها للفكر والثقافة والتعليم والإعلام مؤسسات وكتائب سبقت وصاحبت غزوات الجيوش وسلطات الاحتلال.

فالقناصل الفرنسيون في الشام يتحدثون - في مراسلاتهم - عن مقاصد مدارس إرساليات التبشير، التي ركزت على الطائفة المارونية،

(1) (الأستاذ) العدد الثاني والعشرون. ص 705، 706.

فيقولون عن هذه المقاصد: (إنها تأمين هيمنة بلدنا على منطقة خصبة ومنتجة، وجعل البربرية العربية تنحني لا إراديًّا أمام الحضارة المسيحية لأوروبا)![1].

ومن بين خريجي مدارس التبشير هذه، وفد إلى مصر عدد من المثقفين الكارهين للإسلام وحضارته- لثقافتهم الغربية، ولمذهبهم الديني، ولتناقضاتهم الطائفية مع الدولة العثمانية- فاحترفوا التبشير بالنموذج الحضاري الغربي، وأقاموا المنابر الثقافية والإعلامية التي تدفقت من نوافذها ثقافة الغرب ونظرياته ومثله وقيمه ورؤاه السياسية، محاولين إقامتها في بلادنا بديلًا للحضارة الإسلامية. وكان من بين هؤلاء أصحاب مجلة (المقتطف) (1293 - 1371هـ، 1876 - 1952م) وجريدة (المقطم) (1306 - 1371 هـ، 1889 - 1952م) وكتابهما، من مثل يعقوب صروف (1268 - 1345 هـ، 1852 - 1927م) وفارس نمر (1272 - 1370 هـ، 1856 - 1951م) وشاهين مكاريوس (1269 - 1328هـ، 1853 - 1910م) وأمين شميل (1243 - 1315 هـ، 1828 - 1897م) وشبلي شميل (1276 - 1335 هـ، 1860 - 1917م) الخ، الخ. وأضرابهم من خريجي مدارس إرساليات التبشير، الذين احترفوا صناعة

(1) من محفوظات أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية بباريس، لسنوات 1840 - 1898م - انظر كتابنا (هل الإسلام هو الحل)؟ ص 22. طبعة القاهرة سنة 1995م.

التبشير بالنموذج الحضاري الغربي، وكانوا- بعد احتلال الإنجليز لمصر- أركان سلطان اللورد كرومر (1841 - 1917م) والسياسة الاستعمارية في مواجهة الحركة الوطنية المصرية في ذلك التاريخ.

ومع هذا التيار التغريبي كان صراع النديم!.

فهو يصفهم بـ(الأجراء، أضداد مصر والمصريين، المؤسسين للفتن، والمترددين على أبواب وكلاء الدول الأجنبية بالأكاذيب والأراجيف..)[1] (فأصبحوا لا شرقيين ولا غربيين، واتخذتهم أوروبا وسائل لتنفيذ آرائها ووصولها إلى مقاصدها من الشرق، وهي تحثهم على المثابرة على عملهم باسم المدنية، وما هي إلا التوحش والرجوع إلى الحيوانية المحضة..)[2]، (وهم الذين نبتت لحوم أجسامهم في خدمة الأجنبي، فانفعلت لها أرواحهم، فكلما حولتهم عن وجهتها الغربية دارت إليها، فهي قبلة مصلاها التي وقفت في محرابها وقوف القانت الواعظ!، فإذا قالت جريدة وطنية: ينبغي أن نحافظ على عوائدنا الجنسية والدينية، ونأخذ من محسنات أوروبا ما لا يضر بمعتقد ولا يذهب بمال ولا يهتك بعرضٍ، قامت جريدتهم لتقول: إن هذه دعوة إلى الهمجية وتقهقر المدنية، وإذا قال كاتب وطني: إن صلاحنا في

(1) (الأستاذ) العدد الرابع والعشرون. ص 564 - 567.

(2) المصدر السابق. العدد الثاني والعشرون. ص 510.

استقلالنا بممالكنا وأعمالنا، قالوا: إننا غير مؤّهلين لذلك، وإن حاجتنا إلى الأجنبي كحاجة الجسم للروح، وإذا قال خطيب: إن سعينا خلف تعلم الصناعة مما يزيد قوتنا ويعظّم ثروتنا، عارضوه قائلين: (لا معادن عندنا، ولا معامل في بلادنا، ولا صناع فينا، ولا قدرة لنا، فأولى بنا أن نبقى تحت عوامل الزمن قانعين بمصنوع الغير..)!.

والنديم يلتمس العذر للأجنبي المستعمر، ولا يرى عذرًا لهؤلاء الأجراء العملاء. (فلا يُلام أجنبي نزح عن بلاده ليخدمها في الشرق، ولكن العجب من شرقي يخدم غربيًّا يسلب حقوق إخوانه، وإضاعة شرف أوطانه، والحط على ملوكه وأمرائه. فالأجنبي المحض خير للشرقيين من هذا المحتال، وشر الرجال من ينفق حياته في إفساد أهل بلاده، وإغراء الغير بهم؛ طمعًا في ذهب يموت ويتركه، فيفنى ويبقى ذكره القبيح خالدًا في بطون أوراقه!..)[1]، (ولا يلام الغربي على تداخله في شئون الشرق وأهله، فإن ذلك من أطماع الملوك في كل زمان، وإنما نلوم الشرقيين على تعاميهم عن مصلحة بلادهم وانصرافهم عنها بالاشتغال بمصالح الغربيين..)[2]، (وليس من التهذيب أن نذم أوروبا ونقبح أعمال أهلها وعوائدهم، فإن

(1) المصدر السابق. العدد السابع عشر. ص 388 – 390.

(2) المصدر السابق. العدد الثامن عشر. ص 411.

لكل أمة خصائص ألفتها وعادات لزمتها، وإنما نذم الذين أرادوا تقليد أوروبا..)[1]، (إذ لا يلزم من استحسان الغير لشيء نفعه لآخر..)[2].

(لقد استمالت أوروبا هؤلاء الأجراء، فانتموا إليها، فهم أجانب منا وإن تكلموا لغتنا وسكنوا وطننا، بل وإن دانوا بديننا..)[3]، ولقد (اعتمدت إنكلترا على جرائد هؤلاء الأجراء، تحرك بها نار النفرة بين المصريين..)[4]، والنديم لم يقف في فضح تيار التغريب هذا، بما كتب من مقالات، ندر أن يخلو من إحداها عدد من أعداد (الأستاذ) فنظم في فضحهم الشعر أيضًا!، وخاطب المصريين والشرقيين، فقال:

وحاشوا أناسًا أُشربوا حب غيركم ... وهم منكمُ لكن يسرّهمُ الشر

مثالهمُ بعض الأُلى أنشأوا لكم ... جرائد يزهو في صحائفها السطر

ومن بات مسرورًا بخدمة غيركم ... ومُثْرٍ له من فضل أعدائكم وَفْرُ

ينادونكم للغير باسم صلاحكم ... وسم الأفاعي في صناعتهم حِبْرُ[5]!

***

(1) المصدر السابق. العدد الثامن عشر. ص 417، 418.

(2) المصدر السابق. العدد الأول. ص 15.

(3) المصدر السابق. العدد الثامن عشر. ص 420.

(4) المصدر السابق. العدد الثامن والثلاثون. ص 914.

(5) المصدر السابق. العدد الرابع والعشرون. ص 564.

obeikandl.com

والنديم لا يدع مجالًا للشك في أن سهامه الوطنية والحضارية والدينية إنما هي موجهة إلى أجراء الأجنبي وعملاء الحضارة الغربية، من تيار (المقتطف) و(المقطم) على وجه التحديد.

فهو يصف كتاب (المقتطف)، الذين جعلوا مجلتهم نافذة للنظريات الوضعية والمادية الغربية، بأنهم (أعداء الله وأنبيائه) و(الأجراء الذين أنشئوا لهم جريدة جعلوها خزانة لترجمة كلام من لم يدينوا بدين، ممن ينسبون معجزات الأنبياء إلى الظواهر الطبيعية والتراكيب الكيماوية، ويرجعون بالمكونات إلى المادة والطبيعة، منكرين وجود الإله الحق. وقد ستروا هذه الأباطيل تحت اسم فصول علمية، وما هي إلا معاول يهدمون بها عموم الأديان..)[1]!.

وهم (أعداء أنفسهم، دفعتهم يد الطرد إلى النزوح عن وطنهم إلى مصر المحروسة، فالتجئوا إلى بعض أمرائها فأكرمهم ظنًّا أنهم من أرباب الأقلام أو ذوي الأفهام، بما يراه في جريدتهم التي ما فيها إلا تراجم عن جرائد أوروبا العلمية، فقربهم أمراء مصر اعتمادًا على أنهم شرقيون عثمانيون، لا يخدمون إلا دولتهم، ولا يغشون إخوانهم، فما لبثوا أن كفروا بالنعمة، وأنكروا المعروف، وانحازوا إلى الغير. واغتروا بعناوينهم، وظنوا أن العلم محصور في تعلم الإنسان لغة غير لغته، يترجم بها كتب قومها، ويغرب بها

(1) المصدر السابق. العدد التاسع والثلاثون. ص 923، 924.

على من لم يعرفوها، موهمًا أن المسطر تصنيفه والمجموع تأليفه، وهذا هو الجهل المركب الذي صيرهم أعداء لأنفسهم وهم لا يشعرون..)[1]!.

وعندما تجيب (المقتطف) عن سؤال قارئ مسيحي- إسكندر أفندي صعب- حول السد الذي بناه- الإسكندر- ذو القرنين- والذي وردت الإشارة إليه في القرآن الكريم، وتقول في جوابها: (إن ذلك كله من الأقوال التي لا دليل على صحتها)!، يتصدى النديم لهذا التشكيك في القصص القرآني، ويقول: (إن قصة السد ويأجوج ومأجوج ذكرها القرآن العزيز، وهو شائع ذائع معلوم لمحرري المقتطف، والقرآن لم يتعرض لتعيين جهته ومساحته واسم واضعه. فلا يقال- ما قالت المقتطف- من أن السائحين وصلوا الجهة التي أخبر القرآن عن وجود السد بها ولم يجدوا شيئًا، وأدب الكتابة، وحفظ علائق المحبة يقضي بالبعد عن الطعن الديني في جريدة تنشر بين المسلمين وفي بلادهم. فالمسلمون لا يرضوا أن يروا الطعن في كتابهم بلسانهم منشورًا بينهم..)[2]!.

أما أصحاب (المقطم) فهم- برأي النديم- (الأجراء.. الخونة.. عملاء الأجانب، الذين خانوا وطنهم وسلطانهم وأهلهم وخلانهم. وذلك عندما داروا حول أبواب الإنكليز، يوهمونهم أنهم عبيدهم الخاضعون، وخدمهم

(1) المصدر السابق. العدد التاسع والثلاثون. ص 937 – 939.

(2) المصدر السابق. العدد الحادي والعشرون. ص 497 – 50.

المخلصون، وجواسيسهم الناقلون، وتراجمتهم المتبرعون، فوسوسوا لهم وسوسة إفساد وإغراء، وخوفوهم من المصريين، وحذروهم من الركون إليهم والاعتماد عليهم، فأبعدوهم عن الخدمة، وحشدوا مكانهم الغرباء، حتى كأن ثمرة مصر ما حرّمت إلا على أبنائها. ثم نشروا تلك الجريدة الخرقاء، يوهمونهم أنها مقبولة عند المصريين، ولجهل الإنكليز بالعربية صدقوا هؤلاء الأبالسة، وألزم أتباعهم كثيرًا من الناس بالاشتراك فيها ليعمموا نشرها في البلاد. وهي عدوة المصريين)!. (فهي جريدة لشق عصا الاجتماع الشرقي..)[1]!.

بل إن النديم يصنف (المقطم) ضمن (الجرائد الإنكليزية التي تصدر في مصر)[2]!. وأصحابها- عنده- ممن (تعلم في مدارس الغير، على نفقة أهل الخير، فخرج مصطنعًا، لا يعرف له وطنًا ولا شرفًا ولا قبيلة[3]. يغمسون أقلامهم في نعمة الشرقيين ليكتبوا بها معايب لمن أغنوهم، ويجلبوا بها مصائب لمن آوروهم، فما يضرك إلا رجل يدعي أنه أخوك، يناديك بلهجتك ليخرجك من بيتك ويسلمك إلى النخاسين الذين طافوا

(1) المصدر السابق. العدد التاسع والثلاثون. ص 934، 935، 945، 947، 932. وانظر كذلك صفحات 924 – 933.

(2) المصدر السابق. العدد الثاني والأربعون. ص 1029.

(3) المصدر السابق. العدد التاسع والثلاثون. ص 934.

الأرض لاسترقاق الأحرار!. لقد استخدمهم الغربيون بأجرة لا تزيد على ثمن نعل!. وبرغيف يحصّله الزبال وخرقة يملكها الشحاذ!. وهم يستدعون أوروبا بدعوى المحافظة على الأمن والخوف من الحركات الدينية[1]!.

ولقد احتدمت المعركة بين (المقطم) وبين (الأستاذ)، والنديم يكتب: (لقد خصتنا جريدة المقطم بسبب شخصي وقذف ذاتي، افتراء، فقابلناها بحلم الأدباء وصفح الكرماء وصمت الكاظمين الغيظ والعافين عن الناس)[2].

ولما أعيتهم الحيلة، سعوا إلى سلطات الاحتلال طالبين نفي النديم من مصر؛ كي لا يصنع ما سبق وصنع إبان الثورة العرابية مرة أخرى!. بل وكان (المقطم) أول من أشار إلى القرار الاستعماري بنفي النديم. (لقد بارت تجارة الأجراء، فلم يجدوا طريقًا تنفق به سلعتهم إلا السعاية. ولقد أرجفوا بأن محرر (الأستاذ) سيبعد عن مصر..)[3] وبعد شهر واحد من هذا الإرجاف بنفي النديم، كان الرجل يودع قراءّه، بمقال جعل عنوانه (تحية وسلام)، طوى به صفحة أول منبر وطني في الصحافة المصرية بعد هزيمة العرابيين. وفي ختام صفحات أعداد (الأستاذ) قال: (وما خُلقت الرجال

(1) المصدر السابق. العدد الرابع والثلاثون. ص 798، 799. والعدد الثاني والعشرون. ص 532.

(2) المصدر السابق. العدد الأربعون. ص 975، 976.

(3) المصدر السابق. العدد السابع والثلاثون.. ص 889.

إلا لمصابرة الأهوال ومصادمة النوائب، والعاقل يتلذذ بما يراه في فصول تاريخه من العظم والجلالة، وإن كان المبدأ صعوبة وكدرًا في أعين الواقفين عند الظواهر. وعلى هذا فإني أعلن لإخواني قائلًا:

(أودعكم والله يعلم أنني أحب لقاكم والخلود إليكمُ

وما عن قِلًى كان الرحيل وإنما دواع تبدت، فالسلام عليكمُ![1])

***

لكن (الأستاذ)، التي مثلت في ذلك التاريخ: ديوان الوطنية المصرية والجامعة الشرقية والحضارة الإسلامية، كانت الأستاذ الذي تعلم على يديه مصطفى كامل (1291 – 1336 هـ، 1874 – 1908م) فكان (الحزب الوطني)، حزب الوطنية المصرية والجامعة الإسلامية، ذلك الذي خرجت من عباءته القوى التي واصلت الجهاد الوطني، والرباط على ثغور الخصوصية الحضارية.. فتوالت، ولا تزال تتوالى صفحات التدافع الحضاري بين فكر عبد الله النديم– أبرز المعبرين عن أحشاء مصر، وهوية أبناء الشرق– وبين الذين (استمالتهم أوروبا، فانتموا إليها، فهم أجانب منا وإن تكلموا لغتنا وسكنوا وطننا، بل وإن دانوا بديننا). كما قال النديم – عليه رحمة الله – .

(1) المصدر السابق. العدد الثاني والأربعون. ص 1032.